المجلد السادس
تاريخ ابن خلدون
من صفحة 554 – النهاية

سريحه من المعلوجي وحاجبه أحمد بن إبراهيم البالقي وحضر لها الموحدون والفقهاء والكافة. وانفض المجلس وقد انعقد أمره إلى جنازة أبيه حمى واروه التراب. واستبد منصور وابن البالقي على هذا الأمير المنصوب للأمر فلم يكن له تحكم عليهما. وكان أول ما افتتحا به أمرهما أن تقبضا على القاضي محمد بن خلف الله من طبقة الفقهاء، كان نزع إلى السلطان من بلده نفطة مغاضباً لمقدمها عد الله بن علي بن خلف، فرعى له نزوعه إليه واستعمله بخطة القضاء بتونس عند مهلك أبي علي عمر بن عبد الرفيع. ثم ولاه قيادة العساكر إلى بلاد الجريد وحربهم فكان فيه غناء، واستدفعوه مرات بجبايتهم يبعثون بها إلى السلطان، ومرات بمصانعة العرب على الأرجاف بمعسكره. وكان ابن البالقي يغص بمكانه من السلطان فلما استبد على ابنه أعظم فيه السعاية وتقبض عليه، وأودعه السجن مع محمد بن علي بن رافع. ثم بعث عليهما من داخلهما في الفرار من الاعتقال حتى دبّروه معه، وظهر على أمرهما فقتلهما في محبسهما خنقاً والله متولي الجزاء منه { **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** } ثم أظهر ابن البالقي من سوء سيرته في الناس وجوره عليهم وعسفه بهم وانتزاع أموالهم، لاهانة سبال الأشراف بابه منهم ما نقموه، وضرعوا إلى الله في إنقاذهم من ملكته فكان ذلك على يد مولانا السلطان أبي العباس كما نذكر إن شاء الله تعالى.

فتح تونس وبقية عمالات أفريقية
الخبر عن فتح تونس واستيلاء السلطان عليها واستبداده بالدعوة الحفصية في سائر عمالات أفريقية وممالكها

لما هلك السلطان أبو إسحق صاحب الحضرة سنة سبعين وسبعمائة كما قدمناه، وقام بالأمرمولاه منصور سريحه وحاجبه البالقي ونصبوا ابنه الأمير خالدا للأمر صبياً لم يناهز الحلم غراً فلم يحسنوا تدبير أمره ولا سياسة سلطانه، وأستخلصوا لوقتهم منصور بن حمزة أمير بني كعب المتغلبين على

الضاحية بما أطمعوه بسوء تدبيرهم في شركته لهم في الأمر. ثم قلبوا له ظهر المجن فسخطهم ولحق بالسلطان أبي العباس وهو مطل عليهم بمرقبة من الثغور الغربية مستجمع للتوثب فاستحثه لملكهم وحرضه على تلافي أمرهم ورم ما تثلم من سياج دولتهم. وكان الأحق بالأمر لشرف نفسه وجلاله واستفحال ملكه وسلطانه، وشياع الحديث عن عدله ورفقه وحميد سيرته وأمان أهل مملكته من نظر يعقب نظره فيهم

أو استبداد سواه عليهم فأجاب صريخه وشحذ للنهوض عزمه. وكان أهل قسنطينة قد بعثوا بمثل ذلك فسرح إليهم أبا عبد الله ابن الحاجب أبي محمد بن تافراكين لاختبار طاعتهم وابتلاء دخلتهم فسار إليهم واقتضى بيعاتهم وطاعتهم، وسارع إليها يحيى بن يملول مقدم توزر والخلف بن الخلف مقدم نفطة فأتوها طواعية. وانقلب عنهم وقد أخذوا بدعوة السلطان وأقاموها. ثم خرج السلطان من بجاية في العسكر واغذ السير إلى المسيلة، وكان بها إبراهيم ابن عمه الأمير أبي زكريا الأخير جأجأ به أولاد سليمان بن علي من الزواودة من مثوى اغرابه بتلمسان، ونصبوه لطلب حقه في بجاية من بعد أخيه الأمير أبي عبد الله وكان ذلك بمداخلة أبي حمو صاحب تلمسان ومواعيد بالمظاهرة مخلفة. فلما انتهى السلطان إلى المسيلة نبذوا إلى إبراهيم عهده وتبرأوا منه، ورجعوه من حيث جاء، وانكفأ راجعاً إلى بجاية. ثم نهض منها إلى الحضرة وتلقته وفود أفريقية جميعاً بالطاعة، وانتهى إلى البلد فخيم بساحتها أياماً يغاديها القتال ويراوحمها. ثم كشف عن مصدوقته وزحف إلى أسوارها، وقد ترجل أخوه والكثير من بطانته وأوليائه فلم يقم لهم شيء حتى تسنموا الأسوار برياض رأس الطابية، فنزل عنها المقاتلة وفروا إلى داخل البلد. وخامر الناس الدهش وتبراوا بعضهم من بعض، وأهل الدولة في موكبهم وقوف بباب الغدر من أبواب القصبة. فلما رأوا أنهم أحيط بهم ولوا الأعقاب

وقصدوا باب الجزيرة فكسروا أقفاله. وثار أهل البلد جميعاً بهم فخلصوا سلطانهم من البلد بعد عصب الريق، ومضى الجند في أتباعهم فأدرك أحمد بن اليالقي فقتل وسيق رأسه إلى السلطان. وتقبض على الأمير خالد واعتقل ونجا العلج منصور سريحه برأس طمرة ولجام، وذهل عن القتال دون الأحبة.

ودخل السلطان القصر واقتعد أريكته، وانطلقت أيدي العيث في ديار أهل الدولة فاكتسحت بما كان الناس يضطغنون عليهم تحاملهم على الرعية واغتصاب أموالهم، فاضطرمت نار العيث في دورهم ومخلفهم فلم تكد أن تنطفىء، ولحق بعض أهل العافية معرات من ذلك لعموم النهب وشموله حتى أطفأه الله ببركة السلطان وجميل نيته وسعادة أمره. ولاذ الناس منه بالملك الرحيم والسلطان العادل، وتهافتوا عليه تهافت الفراش على الذبال يلثمون أطرافه، ويجأرون بالدعاء له ويتنافسون في التماح محياه إلى أن غشيهم

الليل. ودخل السلطان قصوره وخلا بما ظفر من ملك آبائه، وبعث بالأمير خالد وأخيه في الأسطول إلى قسنطينة فعصفت بهما الريح وانخرقت السفينة وتقاذفت الأمواج إلى أن هلكا. واستبد السلطان بأمره، وعقد لأخيه الأمير أبي يحيى زكريا على حجابته. ورعى لابن تافراكين حق انحياشه إليه ونزوعه فجعله رديفاً لأخيه، واستمر الأمر عكى ذلك الى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض منصور بن حمزة وأجلابه بالعم أبي يحيي زكريا علي الحضرة وما كان عقب ذلك من نكبة ابن تافراكين:

كان منصور بن حمزة هذا أمير البدو من بني سليم بما كان سيد بني كعب. وكان

السلطان أبو إسحق يؤثره بمزيد العناية، وجعل له على قومه المزية. وكان بنو حمزة هؤلاء منذ غلبوا السلطان أبا الحسن على أفريقية وأزعجوه منها قد استطالت أيديهم عليها وتقاسموها أوزاعاً ، وأقطعهم أمراء الحضرة السهمان في جبايتها زيادة لما غلبوا عليه من ضواحيها وأمصالها، استئلافاً لهم على المظاهرة وإقامة الدعوة والحماية من أهل الثغور. الغربية فملكوا الأكثر منها، وضعف سهمان السلطان بينهم فيها. فلما استولى هذا السلطان أبو العباس على الحضرة واستبد بالدعوة الحفصية كبح أعنتهم عن التغلب والاستبداد وانتزع ما في أيديهم من الأمصار والعمالات التي كانت من قبل خالصة للسلطان. وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبونه فاحفظهم ذلك وأهمهم شأنه وتنكر منصور بن حمزة وقلب ظهر المجن ونزع يده من الطاعة وغمسها في الخلاف، وتابعه على خروجه على السلطان أبو صعنونة أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين شيخ حكيم. وارتحل بأحيائه إلى الزواودة صريخاً مستحيشاً بالأمير أبي يحيى ابن السلطان أبي بكر المقيم بين ظهرانيهم من لدن فعلته بالمهدية وانتزائه بها على أخيه المولى أبي إسحق كما ذكرنا فنصبوه للأمر وبايعوه، وارتحل معهم، وأغذوا السير إلى تونس. وقيه منصور بن حمزة في أحيائه بنواحي تبسة فبايعوا له. وأوفدوا مشيختهم على يحيى بن يملول شيطان الغواية المارد على الخلاف يستحثونه للطاعة والمدد لمداخلة كانت بينهم في ذلك سول لهم فيها بالمواعيد، وأملى لهم حتى إذا غمسوا أيديهم في النفاق والأجلاب سوفهم عن مواعيده ضنانة بماله فأسرها منصور في نفسه، واعتزم من يومئذ على الرجوع إلى الطاعة. ثم رحلوا للأجلاب على الحضرة، وسرح السلطان أبو العباس أخاه الأمير أبا

يحيى زكريا للقيهم في العساكر، وتزاحفوا واتيح لمنصور وقومه ظهور على عساكر السلطان وأوليائه لم يستكمله، وأجلبوا على البلد أياماً. ونمي إلى السلطان أن حاجبه أبا عبد الله بن تافراكين داخلهم في تبيين البلد فتقبض عليه وأشخصه في البحر إلى قسنطينة فلم يزل بها معتقلاً إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين وسبعمائة. ثم سرب السلطان أمواله فانتقض على منصور قومه وخشى مغبة حاله، وسوغه السلطان جائزته فعاود

الطاعة، ورهن إبنه ونبذ إلى سلطانه زكريا العم عقده ورجعه على عقبه إلى الزواودة. والتزم طاعة السلطان والاستقامة على المظاهرة إلى أن هلك سنة ست وتسعين وسبعمائة، قتله محمد ابن أخيه فتيتة في مشاجرة كانت بينهما، طعنه لها فأشواه، ورجع جريحاً إلى بيته وهلك دونها آخر يومه. وقام بأمر بني كعب بعد صولة ابن أخين خالد وعقد له مولانا السلطان على أمرهم، واستمرت الحال إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح سوسة والمهدية:

كان سوسة منذ واقعة بني مرين بالقيروان، وتغلب العرب على العمالات أقطعها السلطان أبو الحسن لخليفة بن عبد الله بن مسكين فيما سوغ للعرب من الأمصار والإقطاعات مما لم يكن لهم، فاستولى عليها خليفة هذا ونزلها واستقل بجبايتها وأحكامها. واستبد بها على السلطان ولم يزل كذلك إلى أن هلك، وقام بأمره في قومه عامر ابن عمه مسكين أيام استبداد أبي محمد بن تافراكين فسوغها له كذلك متقبلاً مذهب من قبله. ثم قتله بنو كعب، وقام بأمر حكيم من بعده أحمد الملقب أبو صعنونة بن محمد أخي خليفة بن عبد الله بن مسكين فاستبد بسوسة على السلطان واقتعدها دار إمارته. وربما كان ينتقض على صاحب الحضرة فيجلب عليها من سوسة، ويشن الغارات في نواحيها حتى لقد أوقع في بعض أيامه بمنصور سريحه مولى السلطان أبي إسحق وقائد عساكره، فتقبض عليه واعتقله بسوسة أياماً، ثم من عليه وأطلقه وعاود الطاعة معه، ولم يزل هذا دأبهم. وكانت لهم في الرعايا آثار قبيحة وملكات سيئة، ولم يزالوا يضرعون إلى الله في إنقاذهم من أيدي جورهم وعسفهم إلى أن تأذن الله لأهل أفريقية باقتبال الخير وفيء ظلال الأمر. واستبد مولانا السلطان أبو العباس بالحضرة وسائر عمالات أفريقية، وهبت ريح العز على العرب في جميع النواحي فتنكر أهل سوسة لعاملهم أبي صعنونة هذا، وأحس بنكرائهم وخرج عنهم وتجافى للسلطان عن البلد. وثارت عامتها بعماله فأجهضوهم ونزل

عمال السلطان بها. ثم كانت من بعد ذلك حركة المولى أبي يحيى إلى نواحي طرابلس، ودوخ جهاتها واستوفى جباية عمالها. وكان بالمهدية محمد بن الجكجاك استعمله عليها الحاجب أبو محمد بن تافراكين أيام ارتجاعه إياها من يد أبي العباس بن مكي، والأمير أبي يحيى زكريا المنتزي بها ابن مولانا السلطان أبي بكركما مر. وأقام ابن الجكجاك أميراً عليها، واستبد بها بعد موت الحاجب. فلما وخزته شوكة الاستطالة من الدولة، وطلع نحوه قتام العساكر فرق من الاستيلاء عليه، وركب أسطوله إلى طرابلس ونزل على صاحبها أبي بكر بن ثابت لذمة صهر قديم كانت بينهما. وبادر مولانا السلطان إلى تسلم المهدية، وبعث عليها عماله، وانتظمت في ملكيته واطردت أحوال الظهور والنجح وكان بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح جربة وانتظامها في ملك السلطان:

كان محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون منذ ولاه أبو عبد الله بن تافراكين على هذه الجزيرة، قد تقبل مذاهب جيرانها من أهل قابس وطرابلس وسائر الجريد في الامتناع على السلطان ومصارفة الاستبداد وانتحال مذاهب الإمارة وطرقها ولبوس شارتها. وقد ذكرنا سلفه من قبل، وأن والده كان صاحب الأشغال بالحضرة أيام الحاجب أبي محمد بن تافراكين، وأنه اعتلق بمكاتبة إبنه أبي عبد الله فولاه على جربة عند افتتاحه إياها وأنه قصده عند مفره عن المولى أبي إسحق لينزل جربة معولا على قديم اصطناعه إياه فمنعه. ثم داخل شيوخ الجزيرة من بني سمومن في الامتناع على السلطان والاستبداد بأمرهم فأجابوه، وأقام ممتنعاً سائر دولة المولى أبي إسحق وإبنه من بعده.

ولما استولى مولانا السلطان أبو العباس على تونس داخله الروع والوحشة، وصار إلى مكاثرة رؤساء الجريد في التظافر على المدافعة بزعمهم فأجرى في ذلك شأوا بعيداً مع تخلفه في مضماره بقديمه وحديثه. وصادف السلطان سوء الامتثال وإتيان الطاعة

ومنع الجباية فأحفظ، ولما افتتح أمصار الساحل وثغوره سرح إبنه الأمير أبا بكر في العساكر إلى جربة ومعه خالصة الدولة محمد بن علي بن إبراهيم من ولد أبي هلال شيخ الموحدين، وصاحب بجاية لعهد المتنصر، وقد تقدم ذكره. وأمده بالأسطول في البحر لحصارها. ونزل الأمير بعسكره على مجازها ووصل إلى مرساتها فأطاف بحصن القشتيل، وقد لاذ ابن أبي العيون بجدرانه وافترق عنه شيوخ الجزايرة من البربر، وانحاش بطانته من الجند المستخدمين معه بها. ولما رأوا ما لا طاقة لهم به، وأن عساكر السلطان قد أحاطت بهم براً وبحراً نزلوا إلى قائد الأسطول وأمكنوه من الحصن، وبادروا إلى معسكر الأمير فأقبل معهم الخاصة أبوعبد الله بن أبي هلال فيمن معه من بطانة الأمير وحاشيته فاقتحموا الحصن، وتقبضوا على محمد بن أبي العيون ونقلوه من حينه إلى الأسطول، واستولوا على داره وولوا على الجزيرة وارتحلوا قافلين إلى السلطان. ووصل محمد بن أبي العيون إلى الحضرة، ونزل بالديوان فأركب إلى القصبة على جمل، وطيف به على أسواق البلد إظهارا لعقوبة الله النازلة به وأحضره السلطان فوبخه على مرتكبه في العناد ومداخلته أهل الغواية من أمراء الجريد في الانحراف عنه. ثم تجافى عن دمه وأودعه السجن إلى أن هلك سنة تسع وسبعين.

الخبر عن استقلال الأمراء من الأبناء بولاية الثغور الغربية:

كان السلطان عندما استجمع الرحلة إلى أفريقية باستحثاث أهلها لذلك، ووفادة منصور بن حمزة شيخ الكعوب مرغبا فيها فأهمه عند ذلك شأن الثغور الغربية، وأجال اختياره في بنيه بسبر أحوالهم ويعيش عن الأكفاء لهذه الثغور منهم فوقع نظره أولاً على كبير ولده المخصوص بعناية الله في إلقاء محبته عليه الأمير أبي عبد الله فعقد له على بجاية وأعمالها، وأنزله بقصور الملك منها، وأطلق يده في مال الجباية وديوان الجند. واستعمل على قسنطينة وضواحيها لمولاه القائد بشير سيف دولته وعنان حربه، ناشىء قصره وتلاد مرباه. وكانت لهذا الرجل نخوة من الصرامة والبأس، ودالة بالقديم والحادث، وخلال لقيها أيام التقلب في أواوين الملك. وكان ملازماً ركاب

مولاه في مطارح اغترابه وأيام تحيصه. وربما لقي عند إلحاحه على قسنطينة من المحنة والإعتفال الطويل ما أعاضه الله عنه بجميل التنويه، وعود العز والملك إلى مولاه على أحسن الأحوال. وظفر من ذلك بالبغية وحصل من الرتبة على الأمنية. وكان السلطان يثق بنظره في العساكر ويبعثه في مقدمة الحروب، وكان عند استيلائه على بجاية وصرف عنايته إليها ولاه أمر قسنطينة وأنزله بها وأنزل معه إبنه الأمير أبا إسحق، وجعل إليه كفالته لصغره ثم استنفره بالعسكر عند النهوض إلى أفريقية فنهض في جملته وشهد معه الفتح. ثم رجعه إلى عمله بقسنطينة بمزيد التفويض والاستقلال، فلم يزل بما دفع إليه من ذك إلى أن هلك.

وكان السلطان قد أوفد إبنه أبا إسحق على ملك المغرب السلطان عبد العزيز عندما استولى على تلمسان مهنياً بالظفر ملفحاً غراس الود، وأوفد معه شيخ الموحدين ببابه أبا إسحق بن أبي هلال، وقد مر من قبل ذكره وذكر أخيه فتلقاهما ملك المغرب بوجوه المبرة والاحتفاء، ورجعهما بالحديث الجميل عنه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة. ونزل الأمير أبو إسحق بقسنطينة دار أمارته، وعمد له السلطان عليها وألقاب الملك ورسومه مصروفة إليه. والقائد بشير مولى إبنه مستبد عليه لمكان صغره إلى أن اهمك بشير سنة ثمان وسبعين وسبعمائة عندما استكمل الأمير أبو إسحق الخلال، واستجمع للأمارة فجدد له السلطان عهده عليها وفوض إليه في أمارتها وقام بما دفع إليه من ذلك أحسن مقام وأكفأه مصدقاً الظنون التي كانت تومىء إليه وشهادة المخايل التي دلت عليه، فاستقل هذان الأميران بثغر بجاية وقسنطينة وأعمالها مفوضاً إليهما في الأمارة مأذونا لهما في اتخاذ الآلة وإقامة الرسوم الملوكية والشارة. وكان الأمير أبو يحيى زكريا الأخ الكريم مستقلاً أيضاً ببونة وعملها منذ استيلائه عليها قد أضافها السلطان إليه وأصارها في سهمانه، فلما ارتحلوا إلى أفريقية عام الفتح وتيقن الأخ أبو يحيى طول مغيبه واغتباط السلطان أخيه بكونه معه، عقد عليه لإبنه الأمير أبي عبد الله محمد وأنزله بقصره منها وفوض إليه في أمارتها لما استجمع من خلال الترشيح والذكر الصالح في

الدين. واستمر الحال على ذلك لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة والله مدبر الأمور.

الخبر عن فتح قفصة وتوزر وانتظام أعمال قسنطينة في طاعة السلطان:

كان أمر هذا الجريد قد صار شورى بين رؤساء أمصاره فيما قبل دولة السلطان أبي بكر لاعتلال الدولة حينئذ بانقسامها كما مر، فلما استبد السلطان أبو بكر بالدعوة الحفصية وفرغ من الشواغل صرف إليهم نظره وأوطأهم عساكره. ثم نهض بنفسه فجاء أثر الشورى منها، وعقد لابنه أبي العباس عليها كما قلناه. فلما كان بعد مهلكه من اضطراب أفريقية وتغلب الأعراب على نواحيها ما كان منذ هزيمة السلطان أبي الحسن وبني مرين بالقيروان عاد أهل الشورى في الجريد إلى دينهم من التوثب على الأمر والاستبداد على السلطان، وتناغى رؤساؤهم بعد أن كانوا سوقة في انتحال مذاهب الملك وشاراته، يقتعدون الأرائك ويعقدون في المشي بين السكك المواكب، ويهينون في إيوانهم سبال الأشراف ويتخذون الآلة أيام المشاهد آية للمعتبرين لي تقلب الأيام وضحكة لأهل الشمات، حتى لقد حدثتهم أنفسهم بألقاب الخلافة، وأقاموا على ذلك أحوالاً، والدولة في التياثها. فلما استبد السلطان أبو العباس بأفريقية وعمالاتها، وأتيح منه بالحضرة البازي المطل من مرقبه والأسد الحادر في عرينه، وأصبحوا فرائس له يتوقعون انصبابه إليهم وتوثبه بهم، داخلوا حينئذ الأعراب في مدافعته عنهم بإضرام نار الفتنة، واقتعاد مطية الخلاف والنفاق يفتون بذلك في عزائمه. وأرخى هو لهم طيل الأمهال وفسح لهم مجال الإيناس بالمقاربة والوعد، رجاء الفيئة إلى الطاعة المعروفة والاستقامة على الجادة فأصروا وازدادوا عنادا ونفاقاً. فشفر لهم عن عزائمه ونبذ إليهم عهدهم على سواء.

ونهض من الحضرة سنة سبع وسبعين وسبعمائة في عساكره من الموحدين وطبقات الجند والموالي وقبائل زناتة ومن استألف إليه من العرب أولاد مهلهل وحكيم، وإظاهر أولاد أبي الليل على المدافعة عن أهل الجريد، وواقفوا

السلطان أياماً. ثم أجفلوا أمامه وغلبهم السلطان على رعاياهم مرنجيزة، وكانوا من بقايا بني يفرن عمروا ضواحي أفريقية مع ظواعن هوارة ونفوسة ونفزاوة. وكانت للسلطان عليهم مغارم وجبايات وافرة. فلما تغلب المغرب على لسائط أفريقية وتنافسوا في الإقطاعات كانت ظواعن مرنجيزة هؤلاء في أقطاع أولاد حمزة، فكانت جبايتهم موفورة ومالهم دثرا بما صاروا مدداً لهم بالمال والكراع والزرع والأدم، وبالفرسان منهم يستظهرون في حروبهم مع السلطان ومن قومهم فاستولى السلطان عليهم في هذه السنة واكتسح أموالهم، وبعث برجالهم أسرى إلى سجون الحضرة وقطع بها عنهم أعظم مادة كانت تمدهم فخمد بذلك من عتوهم وقص من جناحهم آخر الدهر، ووهنوا لها. ثم عاد السلطان إلى حضرته وافترق أشياعه ونزع عنهم أبو صعنونة فتألف مع أولاد أبي الليل، ورجعوا إلى الحضرة فأجلبوا بساحلها أياماً، وشنوا الغارات عليها. ثم انفضوا عنها وخرج على أثرهم لأول فصل الشتاء، وتساحل إلى سوسة والمهدية فاقتضى مغارم الأوطان التي كانت لأبي صعنونة، ثم رجع إلى القيروان وارتحل منها يريد قفصة. وجمع أولاد أبي الليل للمدافعة عنها، وسرب فيهم صاحب توزر الأموال فلم تغن عنه. وزحف السلطان إلى قفصة فنازلها ثلاثاً ولجوا فى عصيانهم

وقاتلوه فجمع الأيدي على قطع نخيلهم فتسايلت إليه الرعية من أماكنهم وأسلموا أحمد بن العابد مقدمهم وإبنه محمد المستبد عليه لكبره وذهوله، فخرج إلى السلطان واشترط له ما شاء من الطاعة والخراج، ورجع إلى البلد وقد ماج أهلها بعضهم في بعض، وهموا بالخروج فسابقهم إبنه أحمد المستبد على أبيه. وكان السلطان سرح أخاه أبا يحيى في الخاصة والأولياء إلى البلد، فلقيه محمد هذا في ساحتها فبعث به إلى السلطان، ودخل هو إلى القصبة وتملك البلد. وتقبض السلطان على محمد بن العابد لوقته، وسيق إليه أبوه من البلد فجعل معه واستولى على داره وذخائره.

واجتمع المدد والكافة من أهل البلد عند السلطان، وأتوه ببيعتهم عليها لابنة أبي بكر، وارتحل يغذ السير إلى توزر وقد طار الخبر بفتح قفصة إلى

ابن يملول فركب لحينه، واحتمل أهله وما خف من ذخيرته، ولحق بالزاب.
وطير أهل توزر بالخبر إلى

السلطان فلقيه أثناء طريقه، وتقدم إلى البلد فملكها واستولى على ذخيرة ابن يملول، ونزل بقصوره فوجد بها من الماعون والمتاع والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يعدّ لأعظم ملك من ملوك الأرض، وأحضر بعض الناس ودائع كانت عنده من نفيس الجوهر والحلى والثياب وبرؤا منها إلى السلطان.

وعقد السلطان على توزر لإبنه المنتصر وأنزله قصور ابن يملول، وجعل إليه إمارتها. واستقدم السلطان الخلف بن الخلف صاحب نفطة فقدم عليه وأتاه طاعته، وعقد له على بلده وولاية حجابة إبنه بتوزر وأنزله معه وقفل إلى الحضرة. وقد كان أهل الخلاف من العرب عند تغلبه على أمصار الجريد خالفوه إلى التلول، فلما قصد حضرته اعترضوه دونها فأوقع بهم وفل من غربهم، وأجفلوا إلى الجهات الغربية يؤملون منها كرة، ولما كن ابن يملول قد جأجأ بهم إلى خدمة صاحب تلمسان والاستجاشة به، فوفد عليه بتلمسان منصور بن خالد منهم ونصر ابن عمه منصور صريخين به على عادة صريخهم بأبي تاشفين سلفه فدافعهم بالمواعد، وتبينوا منها عجزه وانكفوا راجعين. ووفد صولة على السلطان بعد أن توثق له لنفسه فاشترط له على قومه ما شاء، ورجع إليهم فلم يرضوا بشرطه. ونهض السلطان من الحضرة في العساكر والأولياء من العرب، وأجفلوا أمامه فاتبعهم وأوقع بهم ثلاث مرات واقفوه فيها. ثم أجفلوا ولحقوا بالقيروان وقدم وفدهم على السلطان بالطاعة والاشتراط له كما يشاء فتقيل ووسعهم عفوه، وصاروا إلى الانقياد والاعتمال في مذاهب السلطان ومرضاته، وهم على ذلك لهذا العهد.

الخبر عن ثورة أهل قفصة ومهلك ابن الخلف:

لما استقل الخلف بن علي بن الخلف بحجابة المنتصر ابن السلطان، وعقد له مع ذلك على عمله بنفطة فاستخلف عليها عامله، ونزل بتوزر مع المنتصر. ثم سعى به أنه يداخل ابن يملول ويراسله فبث عليه العيون والأرصاد، وعثر على كتابة بخط كاتبه المعروف إلى ابن يملول وإلى يعقوب بن علي أمير الزواودة يحرضهما على الفتنة، فتقبض عليه وأودعه السجن. وبعث عماله إلى نقطة واستولى على أمواله وذخائره، وخاطب أباه في

شأنه فأمهله بعد أن تبين نقضه للطاعة وسعيه في الخلاف. وكان السلطان قبل فتح قفصة قد نزع إليه من بيوتاتها أحمد بن أبي زيد، وسار في ركابه إليها. فلما

استولي على البلد رعى له ذمة نزوعه إليه، وأوصى به إبنه أبا بكر فاستولى على مشورته وحله وعقده، وطوى على النث. ثم حدثته نفسه بالاستبداد وتحين له المواقيت. واتفق أن سار الأمير أبو بكر من نفطة لزيارة أخيه المنتصر بتوزر، وخلف بالبلد عبد الله التريكي من مواليهم، وكان السلطان أنزله معه، وولاه حجابته فلما توارى الأمير عن البلد داخل ابن أبي زيد عنفة من الأوغاد، وطاف في سكك المدينة والهاتف معه ينادي بالثورة ونقض الطاعة. وتقدم إلى قفصة فأغلقها القائد عبد الله دونه، وحاربها، فامتنعت عليه. وقرع عبد الله الطبل بالقصبة واجتمع عليه أهل القرى فأدخلهم من باب كان بالقصبة يفضي إلى الغابة فكثروا شيع ابن أبي زيد، وتسلل عنه الناس فلاذ بالاختفاء. وخرج القائد من القصبة فتقبض على كثير من أهل الثورة فأودعهم السجن واستولى على البلد. وسكن الهيعة وطار الخبر إلى المولى أبي بكر فأغذ السير منقلباً إلى قفصة. ولحين دخوله ضرب أعناق المعتقلين من أهل الثورة وأمر الهاتف فنادى في الناس بالبراءة من ابن أبي زيد وأخيه. ولأيام من دخوله عثر بهما الحرس في مقاعدهم بالباب ستترين بزي النساء فتقبضوا عليهما وتلوهما إلى الأمير فضرب أعناقهما وصلبهما في جذوع النخل. وكانا من المترفين فأصبحاً مثلاً في الأيام وقد خسراً دينهما ودنياهما، وذلك هو الخسران المبين. وارتاب المنتصر صاحب توزر حينئذ بابن خلف، وحذر مغبة حاله فقتله بمحبسه وذهب في كير سبيل مرحمة وانتظم السلطان أمصار الجريد كلها في طاعته، واتصل ظهوره إلى أن كان ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح قابس وانتظامها في ملكة السلطان:

هذا البلد لم يزل في هذه الدولة الحفصية لبني مكي المشهور ذكرهم في هذه العصور وما إليها. وسيأتي ذكر أخبارهم ونسبهم وأوليتهم في فصل نفرده لهم فيما بعد. وكان أصل رياستهم فيها اتصالهم بخدمة الأمير أبي زكريا الأول أيام ولايته قابس سنة ثلاث

وعشرين وستمائة فاختصوا به، وداخلهم في الانتقاض على أخينا أبي محمد عبد الله عندما استجمع لذلك، فأجابوه وبايعوا له فرعى لهم هذه الوسائل عندما استبد بأفريقية، وأفردهم برياسة الشورى كما في بلدهم. ثم سموا إلى الاستبداد عندما فشل ريح الدولة عن القاصية بما حدث من فتن وانفراد الثغور الغربية بالملك. ولم يزالوا جانحين إلى هذا الاستبداد سانحين إليه بثأر الفتن والانتقاض على السلطان ومداخلة الثوار والأجلاب بهم على الحضرة، والدولة أثناء ذلك في شغل عنهم وعن سواهم من أهل الجريد منذ أحقاب متطاولة بما كان من انقسام الدولة، وإلحاح صاحب الثغور الغربية على مطالبه الحضرة.

ثم استبد مولانا السلطان بالدعوة الحفصية في سائر عمالات أفريقية، وشغله عنهم شاغل الفتنة مع صاحب تلمسان في الأجلاب على الحضرة مع جيوشه، ومنازلتهم ثغر بجاية وتسريبه جيوش بني عبد الواد مرة بعد أخرى مع الأعياص من بني أبي حفص والعرب إلى أفريقية. وكان المتولي لرياسة قابس يومئذ عبد الملك بن مكي بن أحمد بن عبد الملك ورديفه فيها أخوه أحمد، وكانا يداخلان أبا تاشفين صاحب تلمسان في الأجلاب على الحضرة مع جيوشه والثوار القادمين معهم. وربما خالفوا السلطان إلى الحضرة أزمان مغيبه عنها كما وقع له مع عبد الواحد بن اللحياني، وقد مر ذكر ذلك. فلما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان، وانمحى أثر بني زيان فرغ السلطان أبو بكر لهؤلاء الثوار الرؤساء بالجريد الدائنين بالانتقاض سائر أيامهم. وزحف إلى قفصة فملكها فذعروا ولحق أحمد بن مكي بالسلطان أبي الحسن متذمماً بشفاعته، بعد أن كان الركب الحجازي من المغرب مر بقابس وبه بعض كرائم السلطان فأوسعوا حباءها وسائر الركب قرى وحباء. وقدموا ذلك وسيلة بين يدي وفادته فتقبل السلطان وسيلته، وكتب إلى مولانا السلطان أبي بكر شافعاً فيهم لذمة السلطان والصهر فمقبل شفاعته وتجاوز. عن الانتقام منهم بما اكتسبوه.

ثم هلك مولانا السلطان أبو بكر وهاج بحر الفتنة والخلاف وعادت الدولة إلى حالها من الانقسام، واشتدت على صاحب الحضرة وجوه الانتصاف منهم

فعاد بنو مكي وسواهم من رؤساء الجريد إلى حالهم من الاستبداد على الدولة. وقطع أسباب الطاعة ومنع المغارم

والجباية، ومشايعة صاحب الغربية ركوناً على صاحب الحضرة. فلما استبد مولانا السلطان أبو العباس بالدعوة الحفصية وجمع الكلمة، واستولى على كثير من الثغور المنتقضة تراسل أهل هذه القصور الجريدية وتحدثوا فيما دهمهم وطلبوا وجه الخلاص منه، والامتناع عليه.

وكان عبد الملك بن مكي أقعدهم بذلك لطول مراسه الفتن وانحياشه إلى الثوار، وكان أحمد أخوه ورديفه قد هلك سنة خمس وستين وسبعمائة، وانفرد هو برياسة قابر فراسلوه وراسلهم في الشأن، وأجمعوا جميعاً على تخبيب العرب على السلطان، وتسريب الأموال فيهم، ومشايعة صاحب تلمسان بالترغيب في ملك أفريقية فانتدبوا لذلك من كل ناحية. وبعثوا البريد إلى صاحب تلمسان فأطمعهم من نفسه، وعللهم بالمواعيد الكاذبة والسلطان أبو العباس مقبل على شأنه، يفتل لهم في الذروة والغارب حتى غلب أولاد أبي الليل الذين كانوا يعدونهم بالمدافعة عنهم، وافتتح قفصة وتوزر ونفطة. وتبين لهم عجز صاحب تلمسان عن صريخهم، فحينئذ بادر عبد الملك إلى مراسلة السلطان يعده من نفسه الطاعة والوفاء بالجباية، ويستدعي لاقتضاء ذلك منه بعض حاشيته فأجابه إلى ذلك، وبعث وافده إليه ورجع إلى الحضرة في انتظاره فطاوله ابن مكي في العرض ورده بالوعد.

ثم اضطرب أمره وانتقض عليه أهل ضاحيته بنو أحمد إحدى بطون دباب، وركبوا

إليه فحاصروه وضيقوا عليه، واستدعوا المدد لذلك من الأمير أبي بكر صاحب قفصة وأمدهم بعسكر وقائد فنازلوه واشتد الحصار. واتهم ابن مكي بعض أهل البلد بمداخلتهم فكبسهم في منازلهم وقتلهم، وتنكرت له الرعية وساء حاله، ودس إلى بعض المفسدين من العرب من بني علي في تبييت العسكر المحاصرين له، واشترط لهم على ذلك ما رضوه من المال فجمعوا لهم وبيتوهم فانفضوا ونالوا منهم. وبلغ السلطان خبرهم فأحفظه وأجمع الحركة على قابس وعسكر بظاهر الحضرة في رجب سنة إحدى وثمانين وسبعمائة، وتلوم أياماً حتى استوفى العطاء واعترض العساكر، وتوافت أحياء أوليائه من أولاد مهلهل

وأحلافهم من سائر سليم. ثم ارتحل إلى القيروان وارتحل منها يريد قابس، وقد استكمل التعبية. وبادر إلى لقائه لأخذ

بطاعته مشيخة دباب أعراب قابس من بني سليم. ووفد منهم خالد بن سباع بن يعقوب شيخ المحاميد، وابن عمه علي بن راشد فيمن إليهم يستحثونه إلى منازلة قابس، فأغذ السير إليها، وقدم رسله بين يديه بالإنذار لابن مكي. وانتهوا إليه فرجعهم بالإنابة والانقياد إلى الطاعة. ثم احتمل رواحله وعبىّ ذخائره وخرج من البلد، ونزل على أحياء دباب هو وإبنه يحيى وحافده عبد الوهاب ابن إبنه مكي الهالك منذ سنين من قبل.

واتصل الخبر إلى السلطان فبادر إلى البلد ودخلها في ذي القعدة من سنته، واستولى على منازل ابن مكي وقصوره. ولاذ أهل البلد بطاعته وولّى عليها من حاشيته، وكان أبو بكر بن ثابت صاحب طرابلس قد بعث إلى السلطان بالطاعة والانحياش، ووافته رسله دوين قابس. فلما استكمل فتحها بعث إليه من حاشيته لاقتضاء ذلك فرجعهم بالطاعة، وأقام عبد الملك بن مكي بعد خروجه من قابس بين أحياء العرب ليالي قلائل. ثم بغته الموت فهلك ولحق إبنه وحافده بطرابلس فمنعهم ابن ثابت الدخول إليها فنزلوا بزنزور من قراها في كفالة الجواري من بطون دباب. ولما استكمل السلطان الفتح وشؤونه انكفأ راجعاً إلى الحضرة فدخلها فاتح إثنتين وثمانين وسبعمائة، ولحقه رسله من طرابلس بهدية ابن ثابت من الرقيق والمتاع بما فيه الوفاء بمغارمه بزعمه. ووفد عليه بعد استقراره بالحضرة رسل أولاد أبي الليل متطارحين في العفو عنهم والقبول عليهم فأجابهم إلى ذلك، ووفد صولة بن خالد شيخهم وقبله أبو صعنونة شيخ حكيم، ورهنوا أبناءهم على الوفاء واستقاموا على الطاعة. واتصل النجح والظهور، والأمر على ذلك لهذا العهد، وهو فاتح ثلاث وثمانين وسبعمائة والله مالك الأمور لا رب غيره.

الخبر عن استقامة ابن مزني وانقياده وما اكتنف ذلك من الأحوال:

كان هؤلاء الرؤساء المستبدون بالجريد والزاب منذ فرغ السلطان لهم من الشواغل،

واسترابوا بمغبة حالهم معه ومراوغتهم له بالطاعة يرومون استحداث الشواغل، ويؤملون لها سلطان تلمسان لعهدهم أبا حمو الأخير وأنه يأخذ بحجزته عنهم أن وصلوا به أيديهم، واستحثوه لذلك لإيلافهم مثلها من سلف قومه. وأبي حمو وبن تاشفين من قبله
قياساً متورطاً في الغلط بعيداً من الإصابة لما نزل بسلطان بني عبد الواد في هذه العصور من الضعف والزمانة، وما أصاب قومهم من الهلاك والشتات بأيديهم وأيدي عدوهم وتقدمهم في هذا الشأن أحمد بن مزني صاحب بسكرة لقرب جواره، واشتهار مثلها من سلفه فاتبعوه وقلدوه وغطى هواهم جميعاً على بصيرتهم. وقارن ذلك نزول الأمير أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عم أبي حمو علي بن يملول بتوزر عند منابذة سالم بن إبراهيم الثعالبي إياه، وكان طارد به أياماً. ثم راجع أبا حمو وصرفه سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فخرج من أعمال تلمسان وأبعد المذهب عنهم، ونزل على ابن يملول بتوزر.

وطير الخبر إلى إمامه في تلك الفتنة أحمد بن مزني واغتبطوا بمكان أبي زيان، وأن تمسكهم به ذريعة إلى اعتمال أبي حمو في مرضاتهم، وإجابته إلى داعيهم وركض بريدهم إلى تلمسان في ذلك ذاهباً وجائياً حتى أعيت الرسل واشتبهت المذاهب، ولم يحصلوا على غير المقاربة والوعد لكن على شريطة التوثق من أبي زيان. وبينما هم في ذلك إذ هجم السلطان على الجريد وشرد عنه أولاد أبي الليل الذين تكفلوا لرؤسائه بالمدافعة. وافتتح قفصة وتوزر ونفطة، ولحق يحيى بن يملول ببسكرة، واستصحب الأمير أبا زيان فنزل على ابن مزني، وهلك لأيام قلائل كما ذكرنا. واستحكمت عندها استرابة يعقوب بن علي شيخ رياح بأمره مع السلطان لما سلف منه في مداخلة هؤلاء الرهط وتمسكهم بحقويه والمبالغة في العذر عنهم. ثم غيرته بأنظاره من مشيخة الزواودة الذين انحاشوا إلى السلطان فأفاض عليهم عطاءه، واختصهم بولايته فحدث لذلك منه نفرة واضطراب، وارتحل إلى السلطان أبي حمو صاحب تلمسان فاتح إثنتين وثمانين وسبعمائة يستجيشه لهؤلاء الرهط ويهزه بها إلى البدار بصريخهم.

ونزل على أولاد عريف أوليائه من سويد، وأوفد عليه إبنه فتعلل لهم بمنافرة حدثت

في الوقت بينه وبين صاحب المغرب ، وأنه لهم بالمرصاد متى رابهم ريب من نهوض السلطان أبي العباس إليهم، تمسك بذلك طرف التوثق من أبي زيان وربما دس إليهم بمشارطة اعتقاله وإلقائه في غيابات السجون. وفي مغيب يعقوب هذا طرق السلطان تمحيص مر المرض أرجف له المفسدون بالجريد ودس شيع آل يملول بتحيزه إلى صبي من أبناء يحيى مخلف ببسكرة، فذهل ابن مزني عن التثبت لها ذهاباً مع صاغية الولد وأوليائه، وجهزهم لانتهاز الفرصة في توزر مع العرب المشارطين في مثلها بالمال، وأغذوا السير إلى توزر على حين غفلة من الدهر وخف من الجند فجلى المنتصر وأوليائه في الامتناع، وصدق الدفاع وتمحصت بهذا الابتلاء طاعة أهل توزر ومخالصتهم، وانصرف ابن يملول بإخفاق من السعي واليم من الندم وتوقع للمكاره. ووافق ببسكرة قدوم يعقوب بن علي مرجعه من الغرب فبالغ في تغييبهم بالملامة على ما أحدثوا بعده من هذا الخرق المتسع المعي على الراقع.

وكان السلطان لأول بلوغ الخبر بأجلابهم على توزير وممالأة ابن مزني على إبنه وأوليائه أجمع النهوض إلى بسكرة وعسكر بظاهر الحضرة، وفتح ديوان العطاء وجهز آلات الحصار. وسرى الخبر بذلك إليهم فخلصوا نجياً ونفضوا عيبه آرائهم فتمحض لهم اعتقال أبي زيان الكفيل لهم بصريخ أبي حمو على زعمه فتعللوا عليه ببعض النزعات، وتورطوا في إخفار ذمته وطيروا بالصريخ إلى أبي حمو، وانتظروا فما راعهم إلا وافده بالعذر عن صريخهم والإعاضة بالمال فتبينوا عجزه ونبذوا عهده، وبادروا علية لتخلية السبيل لأبي زيان والعذر له لما كان السلطان نكر عليهم من أمره فارتحل عنهم ولحق بقسنطينة. وحملهم ابن علي على اللياذ بالطاعة، وأوفد ابن عمه متطارحاً وشافعاً فتقبل السلطان فيئته ووسيلته، وأغضى لابن مزني عن هناته وأسعفهم بكبير دولته وخالصة سره أبي عبد الله بن أبي هلال ليتناول منه المخالصة. ويمكن له الألفة وتمسح عن هواجس الارتياب والمخافة.

وكان لقاؤه أشهى إليهم من الحياة ففصل عن الحضرة، وانتهى السلطان في ذي القعدة آخر سنة إثنتين وثمانين وسبعمائة لتفقد أعماله وابتلاء الطاعة من أهل أوطانه. ولما

وصل وافد السلطان إلى ابن مزني ألقى زمامه إليه وحكمه في ذات يده وقبله، ومحا أثر المراوغة واستجد لبؤس الانحياش والطاعة، وبادر إلى استجادة المقربات وانتقى صنوف التحف. وبعث بذلك في ركاب الوافد مع الذي عليه من الضريبة المعروفة محملاً أكتاد ثقاته وظهور مطاياه. ووصلوا معسكر السلطان بساح تبسة فاتح ثلاث وثمانين وسبعمائة، فجلس لهم السلطان جلوساً فخماً ولقاهم قبولاً وكرامة فعرضوا الهدية، وأعربوا عن الانحياش والطاعة وحسن موقع ذلك من السلطان وشملهم إحسان السلطان في مقاماتهم وجوائزه على الطبقات في انصرافهم، وانقلبوا بما ملأ صدورهم إحساناً ونعمة، وظفروا برضى السلطان وغبطته. وحسبهم بها أمنية وبيد الله تصارف الأمور ومظاهر الغيوب.

الخبر عن انتقاض أولاد أبي الليل ثم مراجعتهم الطاعة:

قد ذكرنا ما كان من رجوع أولاد أبي الليل هؤلاء إلى طاعة السلطان إثر منصرفه من فتح قابس، وأنهم وفدوا عليه بالحضرة فتقبلهم وعفا عنهم كبائرهم واسترهن على الطاعة أبناءهم، واقتضى بالوفاء على ذلك إيمانهم. وخرج الأخ الكريم أبو يحيى زكريا في العساكر لاقتضاء المغارم من هوارة التي استأثروا بها في فترة هذه الفتن. وارتحل معه أولاد أبي الليل وأحلافهم من حكيم حتى استوفى جبايته وجال في أقطار عمله. ثم انكفأ راجعاً إلى الحضرة، ووفدوا معه على السلطان يتوسلون به في إسعافهم بالعسكر إلى بلاد الجريد لاقتضاء مغارمهم على العادة واستيفاء إقطاعاتهم فسرح السلطان معهم لذلك إبنة أبا فارس، وارتحلوا معه بأحيائهم وكان ابن مزني وابن يملول من قبله وابن يعقوب بن علي كثيراً ما يراسلونهم ويستدعونهم لمثل ما كانوا فيه من الانحراف ومشايعة صاحب تلمسان.

ولما اعتقلوا أبا زيان ببسكرة كما ذكرناه وثوقاً بصريخ أبي حمو ومظاهرته. نبضت عروق الخلاف في أولاد أبي الليل ونزعوا إلى اللحاق بيعقوب بن عليّ رجاء فيما

توهموه من استغلاظ أمرهم بصاحب تلمسان ويأساً من معاودة التغلب الذي كان لهم على ضواحي أفريقية ففارقوا الأمير أبا فارس بعد أن أبلغوه مأمنه من قفصة، وساروا بأحيائهم إلى الزاب فلم يقعوا على الغرض ولا ظفروا بالبغية، ووافوا يعقوب وابن مزني، وقد جاءهم وافد أبي حمو بالقعود عن نصرتهم، والأمير أبو زيان قد انطلق لسبيله عنهم فسقط في أيديهم وعاودهم الندم على ما استدبروا من أمرهم، وحملهم يعقوب على مراجعة السلطان وأوفد ابنه محمداً في ذلك مع وافد العزيز أبي عبد الله محمد بن أبي هلال فتقبلهم وأحسن التجاوز عنهم. وبعث أبا يحيى أخاه لاستقدامهم أماناً لهم وتأنيساً . وبذل لهم فوق ما أملوه من مذاهب الرضى والقبول واتصال النجح والظهور، والحمد لله وحده.

تغلب ابن يملول علي توزر وارتجاعها منه:

قد كان تقدم لنا أن يحيى بن يملول لما هلك ببسكرة تخلف صبياً إسمه أبو يحيى، وذكرنا كيف أجلب على توزر سنة إثنتين وثمانين وسبعمائة مع لفيف أعراب رياح

ومرداس. فلما كان سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة بعدها وقعت مغاضبة بين السلطان وبين أولاد هلال من الكعوب، وانحدروا إلى مشاتيهم بالصحراء فبعث أميرهم يحيى بن طالب عن هذا الصبي أبي يحيى من بسكرة، ونزل بأحيائه بساح توزر، ودفع الصبي إلى حصارها، واجتمع عليه شيعته من نواحي البلد وأوشاب من أعراب الصحراء، وأجلبوا على البلد وناوشوا أهلها القتال، وكان بها المنتصر ابن السلطان فقاتلهم أياماً. ثم تداعى شيعهم من جوانب المدينة وغلبوا عساكرهم وأحجروهم بالبلد، ثم دخلوا عليهم، وخرج المنتصر ناجياً بنفسه إلى بيت يحيى بن طالب. واستذم به فأجاره وأبلغه إلى مأمنه بقفصة، وبها عاملها عبد الله التريكي.

واستولى ابن يملول على توزر، واستنفد ما معه وما استخرجه من ذخائرهم بتوزر في أعطيات العرب، وزادهم جباية السنة من البلد بكمالها، ولم يحصل على رضاهم. وبلغ الخبر إلى السلطان بتونس فشمر عزائمه وعسكر بظاهر البلد، واعترض الجند

وأزاح عللهم وارتحل إلى ناحية الأربص، وهو يستألف الأعراب ويجمع لقتال أولاد مهلهل أقتالهم وأعداءهم أولاد أبي الليل وأولياءهم وأحلافهم ليستكثر بهم، حتى نزل فحص تبسة فأراح بهم أياماً حتى توافت أمداده من كل ناحية، ثم نهض يريد توزر. ولما احتل بقفصة قدم أخاه الأمير أبا يحيى وإبنه الأمير المنتصر في العساكر ومعهما صولة بن خالد بقومه أولاد أبي الليل، وسار على أثرهم في التعبية. ولما انتهى أخوه وإبنه إلى توزر حاصروها وضيقوا عليها أياماً. ثم وصل السلطان فزحف إليها العساكر من جوانبها وقاتلوها يوماً إلى المساء. ثم باكروها بالقتال فخذل ابن يملول أصحابه وأفردوه فذهب ناجياً بنفسه إلى حلل العرب، ودخل السلطان البلد واستولى عليه، وأعاد إبنه إلى محل إمارته منه وانكفأ راجعاً إلى قفصة. ثم إلى تونس منتصف أربع وثمانين وسبعمائة.

ولاية الأمير زكريا ابن السلطان علي توزر:

ثم عاد ابن يملول إلى الأجلاب على توزر من السنة القابلة وخرج السلطان في عساكره فكر راجعاً إلى الزاب، ونزل السلطان قفصة ووافاه هنالك إبنه المنتصر، وتظلم أهل توزر من أبي القاسم الشهرزوري الذي كان حاجباً للمنتصر فسمع شكواهم، وأنهق إليه الخاصة سوء دخلته وقبيح أفعاله فقبض عليه بقفصة واحتمله مقيداً إلى تونس.

وغضب لذلك المنتصر وأقسم لا يلي على توزر. وسار معه السلطان إلى تونس وولى على توزر الأمير زكريا من ولده الأصاغر لما كان يتوسم فيه من النجابة فصدقت فراسته فيه، وقام بأمرها وأحسن المدافعة عنها وقام باستئلاف الشارد من أحياء العرب وأمرائهم حتى تم أمره وحسنت ولايته، والله متولى الأمور بحكمته سبحانه لاإله إلا هو.

وفاة الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية:

كان السلطان لما سار إلى فتح تونس و ولّى على بجاية إبنه محمداً كما مر وأقام له حاجبا،

وأوصاه بالرجوع إلى محمد بن أبي مهدي زعيم البلد وقائد الأسطول المتقدم على أهل الشطارة والرجولة من رجل البلد ورماتهم، فقام هذا الأمير أبو عبد الله في منصب الملك ببجاية أحسن قيام واصطنع ابن أبي مهدي أحسن اصطناع فكان يجري في قصوره وأغراضه ويكفيه مهمة في سلطانه، ويراقب مرضاة السلطان في أحواله، والأمير يعرف له ذلك ويوفيه حقه إلى أن أدركته المنية أوائل خمس وثمانين وسبعمائة فتوفي على فراشة آنس ما كان سرباً وآمن روعاً مشيعاً من رضى أبيه ورعيته بما يفتح له أبواب الرضى من ربه، وبلغ نعيه إلى أبيه بتونس فبادر بإنفاذ العهد لإبنه أبي العباس أحمد بولاية بجاية مكان أبيه، وجعل كفالة أمره لابن أبي مهدي مستبداً عليه واستقامت الأمور على ذلك.

حركة السلطان إلي الزاب:

كنت أنتهي بتأليف الكتاب إلى ارتجاع توزر من يد ابن يملول وأنا يومئذ مقيم بتونس، ثم ركبت البحر منتصف أربع وثمانين وسبعمائة إلى بلاد الشرق لقضاء الفرض ونزلت بالإسكندرية ثم بمصر، وصرت أخبار المغرب تبلغنا على ألسنة الواردين، فمن أول ما بلغنا وفاة هذا الأمير ابن السلطان ببجاية سنة خمس وثمانين وسبعمائة. ثم بلغنا بعدها حركة السلطان إلى الزاب سنة ست وثمانين وسبعمائة، وذلك أن أحمد بن مزني صاحب بسكرة والزاب لعهده كان مضطرب الطاعة يجير على السلطان ويمنع في أكثر السنين المغارم معولاً على مدافعة العرب الذين ملكوا ضواحي الزاب والتلول دونه، وأكثر وثوقه في ذلك بيعقوب ابن علي وقومه الزواودة. وقد مر طرف من أخباره في ذلك مثبوتاً في أخبار الدولة. وكان ابن يملول قد أوى إلى بلده واتخذ وكراً في وجوه وأجلب على توزر مراراً برأيه ومعونته فأحفظ ذلك السلطان ونبه له عزائمه.

ثم نهض سنة ست وثمانين وسبعمائة يريد الزاب بعد أن جمع الجموع واحتشد الجنود واستألف العرب من بني سليم فصاروا معه وأوعبوا، ومر على فحص تبسة. ثم خرج من طرف جبل أوراس إلى بلد تهودا من أعمال الزاب، واعصوصب الزواودة ومن

تبعهم من قبائل رياح على المدافعة دون بسكرة والزاب غيرة من بني سليم أن يطرقوا أوطانهم أو يردوا مراعيهم إلا بني سباع بن شبل من الزواودة فإنهم تحيزوا إلى السلطان. واستنفر ابن مزني حماة وطنه ورجالة قومه من الأتبج فغصت بسكرة بجموعهم وتوافت الفريقان، وأنالهم السلطان القتال أياماً وهو يراسل يعقوب بن علي ويستحثه لما كان يطمعه به من المظاهرة على ابن مزني، ويعقوب يخادعه بانحراف قومه عنه وائتلافهم على ابن مزني ويرغبه في قبول طاعته ووضع أوزار الحرب مع رياح حتى تتمكن له فرصة أخرى فتقبل السلطان نصيحته في ذلك وأغضى لابن مزني ولرياح عنها، وقبل طاعته وضريبته المعلومة، وانكفأ راجعاً، ومر بجبل أوراس، ثم إلى قسنطينة فأراح بها ثم ارتحل إلى تونس فوصل إليها منتصف ست وثمانين وسبعمائة.

حركة السلطان إلى قابس

كان السلطان قد فتح مدينة قابس سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وانتظمها في أعماله وشرد عنها بني مكي فذهبوا إلى نواحي طرابلس، وهلك كبيرهم عبد الملك وعبد الرحمن ابن أخيه أحمد، وذهب إبنه يحيى إلى الحج، وأقام عبد الوهاب بزنزور ثم رجع إلى جبال قابس يحاول على ملكها. واستتب له ذلك بوثوب جماعة من أهل البلد بعاملها يوسف الأبار من صنائع السلطان بقبح إيالته وسوء سيرته فداخلوا جماعة من شيعة بني مكي في ضواحي قابس وقراها وواعدوهم فجاؤا لميعادهم وعبد الوهاب معهم، واقتحموا باب البلد وقتلوا البواب. ثم قصدوا ابن الأبار فقتلوه في مسكنه سنة إثنتين وثمانين وسبعمائة. وملك عبد الوهاب البلد واستقل بها كما كان سلفه. وجاء أخوه يحيى من المشرق فأجلب عليه مراراً يروم ملك البلد منه فلم يتهيأ له ذلك، ونزل على صاحب الحامة وأقام عنده يحاول أمر البلد منها فبعث عبد الوهاب إلى صاحب الحامة، وبذل له المال على أن يمكنه منه فبعث إليه به فاعتقله بقصر العروسيين، وأقام يراوغ السلطان عن الطاعة ويبذل ماله في أعراب الضاحية من دباب وغيرهم للمدافعة عنه، ومنع الضريبة التي كانوا يؤدونها للسلطان أيام طاعتهم، والسلطان مشغول عنهم بمهمه فلما فرغ من شواغله بأفريقية

والزاب

نهض إليه سنة تسع وثمانين وسبعمائة بعد أن اعترض عساكره واستألف من العرب أولياءه وسرب فيهم عطاءه.

ونزل على قابس وقد استعد لها وجمع الآلات لحصارها فاكتسح نواحيها، وجثم عليها بعساكره يقاتلها ويقطع نخيلها حتى أعاد الكثير من الفرفهة... براحاً وموج الهواء في ساحتها فصح بعد أن كانوا يستوخمونه لاختفائه بين الشجر، وفي متكاثف الظلال وما يلحقه بذلك من التعفن فذهب عنها ما كان يعهد فيها من ذلك الوخم رحمة من الله أصابتهم من عذاب هذا السلطان، وربما صحت الأجسام بالعلل. ولما اشتد بهم الحصار وضاق المخنق، وفى ابن مكي أنه قد احيط به استعتب للسلطان واستأمن فأعتبه وأمنه، ورهن إبنه على الطاعة وأداء الضريبة وأفرج عنه السلطان وانكفأ راجعاً إلى تونس، واستقام ابن مكي حتى كان من تغلب عمه يحيى عليه ما نذكره.

رجوع المنتصر إلي ولاية توزر وولاية أخيه زكريا علي نفطة ونفزاوة:

كان العرب أيام ولاية المنتصر بتوزر قد حمدوا سيرته وأصفقوا على محبته والتشيع ، فلما رجع السلطان عن قابس رغبوا إليه في طريقهم أن يولي المنتصر على بلاد الجريد كما كان ويردد على عمله بتوزر. وتولّى ذلك بنو مهلهل وأركبوا نساءهم الظعن في الهوادج، واعترضوا بهن السلطات سافرات مولولات دخلاء عليه في إعادة المنتصر إلى توزر لما لهم فيه من المصالح فقبل السلطان وسيلتهن وأعاده إلى توزر، ونقل ابنه زكريا إلى نفطة، وأضاف إليها عمل نفزاوة فسار إليها واستعمله وأظهر من الكفاية والاضطلاع ما تحدث به الناس عنه، وكانت ولايته أول سنة تسعين وسبعمائة.

فتنة الأمير إبراهيم صاحب قسنطينة مع الزواودة ووفاة يعقوب بن علي ثم وفاة الأمير إبراهيم إثرها:

كان للزواودة بقسنطينة عطاء معلوم مرتب على مراتبهم زيادة لما بأيديهم من البلاد في

التلول والزاب بأقطاع السلطان، وضاق نطاق الدولة لهذه العصور فضاقت الجباية، وصار العرب يزرعون الأراضي في بلادهم بالتلول ولا يحتسبون بمغارمها فيضيق الدخل، ويمنعهم السلطان العطاء من أجل ذلك فتفسد طاعتهم وتنطلق بالعيث والنهب أيديهم. ولما رجع الأمير إبراهيم من حركته في ركاب أبيه إلى قابس، وكان منذ أعوام ينقص من عطائهم لذلك ويعللهم بالمواعيد فلما قفل من قابس اجتمعوا إليه وطلبوا منه عطاءهم فتعالى عليهم، وجاءه يعقوب بن علي مرجعه من الحج وأشار عليه بإنصاف العرب من مطالبهم فأعرض عنه وارتحل لبعض مذاهبه، وتركه ونادى في العرب بالفتنة معه يروم استئلاف أعدائه فأجابه الكثير من أولاد سباع بن شبل وأولاد سباع بن يحيى وباديتهم من ذؤبان رياح، وخرج يعقوب من التل فنزل في نقاوس فأقام بها، وانطلقت أيدي قومه على تلول قسنطينة بالنهب وانتساف الزروع حتى اكتسحوا عامتها ولحقوا به مالئي اليد مثقلي الظهر.

ثم طرقه المرض فهلك سنة تسعين وسبعمائة ونقلوا شلوه إلى بسكرة فدفنوه بها، وقام مكانه في قومه إبنه محمد. واستمر على العصيان وصعد إلى التل في منتصف إحدى وتسعين وسبعمائة، واستألف الأمير إبراهيم أعداءه من الزواودة وأحلافهم من البادية وجنح إليه أبو ستة بن عمر أخو يعقوب بن علي بمن معه من أولاد عائشة ام عمر، وخالفه أخوه صميت إلى محمد بن يعقوب. ثم تحاربوا مع الأمير إبراهيم فهزموه وقتل أبو ستة. ثم جمع السلطان لحربهم ودفعهم عن التلول ومنعهم من المصيف عامهم ذلك. وانحدروا إلى مشاتيهم وعجزوا بعدها عن الصعود إلى التلول وقضوا مصيفهم عامهم ذلك بالزاب، وانحدروا منه إلى المشاتي فلما رجعوا من مشاتيهم وقد فقدوا الميرة انطلقت أيديهم على نواحي الزاب فانتسفوا زروعه، وكاد أن يفسد ما بينهم وبين ابن مزني مظاهرهم على تلك الفتنة. ثم ارتحلوا صاعدين إلى التلول، وقد جمع الأمير إبراهيم لدفاعهم عنه. وبينما هو في ذلك ألم به طائف من المرض فتوفي سنة إثنتين وتسعين وسبعمائة وافترقت جموعه. وأغذ محمد بن يوسف السير إلى نواحي قسنطينة فاحتل بها مظاهراً للطاعة متبرئاً من الخلاف، ونادى في أهل

البلاد بالأمان والعمارة فصلحت أحوال الرعايا والسابلة. وبعثوا إلى السلطان بتونس مستأمنين مستعتبين فأمنهم وأعتبهم وأقام بقسنطينة مكان إبنه إبراهيم إبنه وبعث من حصرته محمد ابن

مولاه بخير لكفالته والقيام بدولته فقام بأمرها وصلحت الأحوال والله بيده تصاريف الأمور.

منازلة نصاري الإفرنج للمهدية:

كانت أمة الفرنج وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم التغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره مثل: دانية وسردانية وميورقة وصقلية، وملأت

أساطيلهم فضاءه، ثم تخطوا إلى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها وعادت لهم سورة التغلب في هذا البحر بعد أن كان سورة المسلمين فيه لا يتقاوم إلى آخر دولة الموحدين بكثرة أساطيله ومران راكبيه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم، وزاحمتهم أساطيل المغرب لعهد بني مرين أياماً. ثم فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولتهم بافرنسة، وافترقت طوائف في أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية، وأصبحوا دولاً متعددة فتنبهت عزائم كثير من المسلمين بسواحل أفريقية لغزو بلادهم، وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجمع النفراء والطائفة من غزاة البحر، ويصنعون الأسطول ويتخيرون له الأبطال الرجال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه، ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباً ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بصخب السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدائهم بما يتعذر معه أو يكاد، فشق ذلك على أمم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلاً وحسرةً وعجزوا عن الثأر به، وصرخوا على البعد بالشكوى إلى السلطان بأفرنجة فصم عن سماعها وتطارحوا بثهم وثكلهم فيما بينهم وتداعوا لنزال المسلمين، والأخذ بالثأر منهم.

وبلغ خبر استعدادهم إلى السلطان فسرح إبنه الأمير أبا فارس يستنفر أهل النواحي ويكون رصداً للأسطول هنالك واجتمعت أساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم

أو مجاورهم من أمم النصرانية، وأقلعوا من جنوة فحطوا بمرسى المهدية منتصف إثنتين وتسعين وسبعمائة وطرقوها على حين غفلة، وهي على طرف من البر داخل في البحر كأنه لسان دالع فأرسوا عندها، وضربوا عند أول الطرف سوراً من الخشب بينه وبين البر حتى أصاروا المعقل في حكمهم، وعالوا عليه بالأبراج وشحنوها بالمقاتلة ليتمكنوا من قتال البلد، ومن يأتيهم من مدد المسلمين، وصنعوا برجاً من الخشب من جهة البحر يشرف على أسوار المعقل لتعظم نكايتهم، وتحصن أهل البلد وقاتلوهم صابرين محتسبين. وتوافت إليهم الأمداد من نواحي البلد فحال دونهم الفرنجة.

وبلغ الخبر إلى السلطان فأهمه أمرها، وسرح العساكر تترى إلى مظاهرتهم. ثم خرج أخوه الأمير أبو يحيى زكريا وسائر بنيه فيمن حضره من العساكر فانطلقوا لجهاد هذا العدو، واستنفروا المقاتلة من الأعراب وغيرهم فاجتمعت بساحتها أمم ، وألحوا على الفرنجة بالقتال ونضح السهام حتى أحجروهم في سورهم. وبرز الفرنجة للقتال فكاد بينهم ولي المسلمين جولة جلى فيها أبناء السلطان، وكاد الأمير أبو فارس منهم أن يتورى لولا حماية الله التي وقته. ثم تداركت عليهم الحجارة والسهام والنفط من سور البلد فاحترق البرج المطل علمها من جهة البحر فوجموا لحريقه. ثم ركبوا من الغد أسطولهم وأقلعوا إلى بلادهم، وخرج أهل المهدية يتباشرون بالنجاة ويتنادون بشكرالأمراء على ما اعتمدوه في نصرهم {ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرأ، وكفى الله المؤمنين القتال} . وأمر الأمير أبو يحيى برم ما تثلم من أسوارها ولم ما تشعب منها، وقفل إلى تونس، قد أنجح الله قصدهم وأظهرهم على عدوهم والله تعالى ينصر من يشاء وهو القوى العزيز.

انتقاض قفصة وحصارها:

كان السلطان أبو العباسى قد ولّي على قفصة عندما ملكها إبنه الأمير أبا بكر وأقام

في خدمه من رجال دولتهم عبد الله التريكي من موالي جدهم السلطان أبي يحيى فانتظم به أموه، وأقام بها حولاً ثم تجافى عن أمارتها ولحق بأبيه

بتونس سنة إثنتين وثمانين وسبعين فجعل السلطان أمر قفصة لعبد الله التريكي وولّاه عليها ثقة بغنائه واضطلاعه. ولم يزل واليأ بها إلى أن ملك سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وولى السلطان

مكانه محمداً إبنه، وكان له إخوة أصاغر أبنا علات فنافسوه قي تلك الرتبة وحسدوه عليها، وأكراهم به محمد الدنيدون من قرابة أحمله بن العابد كان ينظر قي قسمة الماء بالبلد، وكان فيها عدلاً معقلاً فلم تطرقه النكبة كما طرقت قومه، وأبقاه السلطان بالبلد فأغرى هؤلاء الإخوة باخيهم ووثبوا به فاعتقلوه وأظهروا العصيان. ثم حمله أعيان البلد على البراءة من بني عبد الله التريكي استرابة بهم أن يراجعوا طاعة السلطان فتوثب بهم وأخرجهم واستصفاهم واستقل برياسة البلد كما كان قومه، والسلطان في خلال ذلك يرعد ويبرق ويواصل الأعذار والإنذار، وهم قد لجوا في طغيانهم. ثم جمع جنوده واحتشد واستألف الأعراب، ووفر لهم ا الأعطيات. ونهض إليها حتى نزل بساحتها منتصف خمس وتسعين وسبعمائة. وقد استعدوا وتحصنوا فألح عليهم القتال وأذاقهم النكال، وقطع عنهم المعيرة فضيق مخنقهم. ثم عدا على نخلهم فقطعها حتى صرع جذوعها، وفسح المجال بين لفافها. ولما اشتدد بهم الحصار وضاق عليهم المخنق، خرج شيخهم الدنيدن إلى السلطان

يعقد معه صلحاً على بلده وقومه فغدر به، وحبسه رجاء أن يملك بذلك البلد. وكان بعض بني العابد إسمه عمر بن الحسن قد انتبذ عن قفصة أيام نكبتهم وأبعد في المغرب، ثم رجع ونزل بأطراف الزاب. ولما استقل الدنيدن بقفصة قدم عليه فأقام معه أياماً. ثم استراب به وتقبض عليه وحبسه. فلما غدر به السلطان اجتمعت عليه المشيخة وعقدوا له الإمرة، وبعثوا إلى العرب يسترحمونهم ويعطفونهم على ذخيرتهم فيهم. وسربوا إليهم الأموال فتصدى للدفاع عنهم صولة بن خالد بن حمزة أمير أولاد أبي الليل. وزحف إلى السلطان بمعسكره من ظاهر البلد، وكان أولياءه من العرب قد ابعدوا عنه في الجهات لانتجاع إبلهم فما راعه إلا إطلاق صولة برايته في قومه فأجفل واتبعوه. وما زال يكر عليهم في بنيه وخواصه حتى ردهم على أعقابهم. وأغذ السير إلى تونس وهم في اتباعه، ولم يظفروا منه بعقال إلأ ما كان من طعن القنا ووقع السيوف حتى وصل إلى حضرته. ثم ندم صولة على ما كان منه وراسل السلطان بطاعته فلم يقبله، وانحدر إلى مشاتيه سنة ست وتسعين وسبعمائة.

واستدعى ابن يملول من عش نفاقه ببسكرة فخف إليه، ودفعه إليها تربه في الغي
أحمد بن مزني صاحب الزاب. ووصل ابن يملول إلى صوله فأغراه بحصار توزر، ونزل معه عليها بقومه فجلى الأمير المنتصر في دفاعهم والامتناع عليهم حتى يئسوا واضطربت آراؤهم، وأفرجوا عنها مفترقين. وصعد صولة إلى التل للمصيف به، وعاود الرغبة من

السلطان في قبول طاعته. وكان محمد الدنيدن لما أجفل السلطان عن قفصة تركه بتلك الناحية فلما وصل إلى تونس راسل أهل قفصة في الرجوع إليهم فأجابه بعض أشياعه، ودخل البلد فنذر به عمر بن العابد وكبسه بمكانه الذي نزل به وقتله، واستبد بمشيخة قفصة. وخشي أهل قفصة من عائلة السلطان وسوء مغبة العصيان فبعثوا إلى السلطان بطاعتهم، وشرط عليهم نزول عامله عندهم، وهذا آخر ما بلغنا عنهم ولما بلغنا أنه عقد لهم ولا لصولة أمرا والله يصرف الأمور بحكمته.

ولاية عمر ابن السلطان على صفاقس واستيلاؤه منها علي قابس وجزيرة جربة:

هدا الأمير عمر ابن السلطان هو شقيق إبراهيم الذي كان أميراً بقسنطينة وكان في

كفالة أخيه إبراهيم فلما توفي كما مر لحق بالسلطان أبيه وأقام عنه. ولما كان من وفاة أبي بكر بن ثابت شيخ طرابلس ما قدمناه واضطراب قومه من بعده، ونزع قائدهم قاسم بن خلف إلى السلطان فبعث معه إبنه عمر هذا سنة إثنتين وتسعين وسبعمائة لحصار طرابلس، وأقام عليها حولاً كريتاً يحاصرها ويمنع الأقوات عنها، حتى ضجروا وضجر من طول المقامة فدافعوه بالضريبة وانكفأ راجعاً إلى أبيه سنة خمس وتسعين وسبعمائة. ووافاه جاثماً على قفصة عندما انتقضوا عليه. وقد كان مر في طريقه على جربة، وأراد الدخول إليها فمنعه عامل أبيه بها من الموالي المعلوجي فأنف من ذلك، وشكاه إلى أبيه فولاّه على صفاقس. ووعده بولاية جربة فسار هو إلى صفاقس وأجاز البحر إلى جزيرة جربة وانضم إليه جميع من بها من القبائل. وامتنع العلج منصور العامل بحصنها المسمى بالقشتيل بلسان الفرنج، حتى كاتب السلطان وأمره بتمكين إبنه من الحصن والإفراج له عن الجزيرة أجمع فاستبد بها ثم إن الأمير عمر سما إلى ملك قابس فداخل أهل الحافة جارتها المجلبة عليها على الأيام في ذلك وأجابوه، وساروا معه بجموعه سنة ست وتسعين وسبعمائة فبيتها وملكها. وقبض على رئيسها يحيى بن عبد الملك بن مكي فضرب عنقه، وانقرض أمر بن مكي من قابس واستقل بها الأمير عمر مضافة إلى ما كان بيده والله وارث الأمور.

وفاة السلطان أبي العباس وولاية إبنه أبي فارس عزوز:

كان السلطان أبو العباس قد أزمن به وجع النقرس حتى كان في غالب أسفاره يحمل على البغال في المحفة. ثم اشتد به آخر عمره وأشرف في سنة ست وتسعين وسبعمائةعلى الهلكة. وكان أخوه زكريا رديفه في الملك والمرشح بعده للأمر، وبنه محمد والياً في بونة موضع إمارته من قبل. وكان للسلطان ولذ كثيرون يتطاولون إلى مكان أبيهم ويغصون بعمهم زكريا، ويخشون غائلته بعد أبيهم. فلما قارب السلطان منيته اشتد جزعهم وإشفاقهم من عمهم. وبعث السلطان كبيرهم أبا بكر بعهده على قسنطينة فسار إليها بين أيدي موته، واعصوصب الباقون على كبيرهم بعده أبي فارس عزوز فقبضوا على عمهم زكريا، وقد دخل يعود أخاه، وأودعوه في بعض الحجر ووكلوا به. وهلك السلطان لثلاث بعدها فبايعوا أخاهم أبا فارس رابع شعبان سنة ست وتسعين وجاء أهل البلد إلى بيعته أفواجاً من الأعيان والكافة فتمت بيعته، وأمر بنقل ما في بيوت عمه من الأموال والذخيرة إلى قصره حتى استوعبها، وضيق عليه في محبسه وقام بتدبير ملكه وسياسة سلطانه. وولى بعض اخوانه على منابر عمله بأفريقية فبعث أحدهم على سوسة والثاني على المهدية، وردف أخاه إسمعيل في ملكه بتونس، وأحل الباقين محل الشورى والمفاوضة.

وبلغ الخبر إلى أخيه المنتصر بتوزر فاضطرب أمره ولحق بالحامة فأقام بها وكذلك أخوه زكريا بنفطة فلحق بجبال نفزاوة. وكان أخوه أبو بكر لما سار إلى قسنطينة لولاية أبيه قبل وفاته مربيونة فلقيه صاحبها الأمير محمد ابن عمه زكريا بما شاء من أ الكرامة والمبرة ووافى قسنطينة فطلب منه القائمون بها كتاب السلطان بعهده علمها فأقرأهم إياه، وفتحوا له الأبواب فدخل واستولى على أمرها. وكان خالصة السلطان محمد بن أبي هلال قد بعثه السلطان قبيل موته إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز المتولي بالمغرب بعد وفاة أبيه السلطان أبي العباس بن أبي سالم في صفر من شهور السنة، وحمله من الهدايا والتحف ما يليق بأمثالهما فسار، فلما انتهى

إلى ميلة بلغه الدر بوفاة السلطان مرسله، وأوعز إليه الأمير أبو بكر من قسنطينة

بالرجوع إليه فرجع بهديته واستقر عنده هنالك. (هذا آخر ما بلغنا) من الأخبار الصحيحة عنهم لهذه السنين، وحالهم على ذلك لهذا العهد، والملك بيد الله يؤتيه من يشاء لارب سواة ولا معبود إلا إياه وهو على كل شىء قدير.

خريطة

بني مزني

الخبر عن بني مزني أمراء بسكرة وما إليها من الزاب

هذا البلد بسكرة هو قاعدة وطن الزاب لهذا العهد، وحده من لدن قصر الدوسن بالغرب إلى قصور تنومة وبادس في الشرق، يفصل بينه وبين البسيط الذي يسمو الحضنة جبل جاثم من المغرب إلى المشرق، ذو ثنايا تفضي إليه من تلك الحضة، وهو جبل درن المتصل من أقصى المغرب إلى قبلة برقة. يعتمر بعض ذلك الجبل في محاذاة الزاب من غربيه بقايا عمرت من زناتة، ويتصل من شرقيه بجبل أوراس المطل على بسكر المعترض في ذلك البسيط من القبلة إلى الشمال، وهو جبل مشهور الذكر يأتي الخبر بعض ساكنيه. وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعاً جمعاً يعرف كل واحد منها بالزاب. وأولها زاب الدوسن، ثم زاب طولقة، ثم زاب مليلة و بسكرة وزاب تهودا وزاب بادس. وبسكرة أم هذه القرى كلها، وكانت مشيختها القديم بعد الأغالبة والشيعة لعهد صنهاجة ملوك القلعة في بني رفان من أهلها بما كثروا

ساكنها، وملكوا عامة ضياعها. كان لجعفر بن أبي رمان منهم صيت وشهرة.

وربما نقضوا الطاعة لعهد بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة في سني خمسين وأربعمائة، وضبطوا البلد وامتنعوا. وتولى كبر ذلك جعفر بن أبي رمانة، ونازلتهم جيوش صنهاجة إلى نظر الوزير خلف بن أبي حيدرة من صنائع الدولة فاقتحمها عليهم، واحتملهم إلى القلعة فقتلهم بلكين جميعاً، وجعلهم عظة لمن بعدهم. وأصار أمر الشورى لبني سندي من أهلها. وكان لعروس منهم بعد ذلك خلوص في الطاعة وانحياش إلى الدولة، على حين تقلص ظلها وفشل ريحها، وألوى الهرم بشبابها. وهو الذي فتك بالمنتصر بن خزرون الزناتي عند وصوله من المشرق واجتلابه على السلطان بقومه من مغراوة وأعراب الأثبج وبني عدي من بني هلال فمكر به

السلطان وأقطعه ضواحي الزاب وريغة طعمة. ودس إلى عروس في الفتك به ففعل كما قدمنا ذكره في أخبار آل حماد. وانقرضت رياسة بني سندي بانقراض أمراء صنهاجة من أفريقية. وجاءت دولة الموحدين، والكثرة والبيت لبني رمان. وكان بنو مزني لفقاً من لفائق الأعراب وصلوا إلى أفريقية أحلافاً لطوالع بني هلال بن عامر في المائة الخامسة كما قدمنا.

ونسبهم بزعمهم في مازن من فزارة والصحيح أنهم في لطيف من الأثبج. ثم من

بني جرى بن علوان بن محمد بن لقمان بن خليفة بن لطيف، واسم أبيهم مزنة بن ديفل بن محيا بن جرى، هكذا تلقيته من بعض نسابة الهلاليين، وشهد لذلك الوطن فإن أهل الزاب كلهم من أفاريق الأثبج، عجزوا عن الظعن ونزلوا قراه على من كان بها قبلهم من زناتة وطوالع الفتح. وإنما يرعون عن هذا النسب فزارة لما صار إليه أهل الأثبج بالزاب من المغرم والوضائع، فيستنكفون لذلك وينتسبون إلى غرائب الأنساب. وكان أول نزلهم بقرية من قرى بسكرة، كانت تعرف بقرية حياس. ثم عفوا وتأثلوا وأخذوا مع أهل بسكرة بحظ وافر في تملك العقار والمياه. ثم انتقلوا إلى البلد واستمتعوا منها بالمنزل والظلال، وقاسموا أهلها في الحلو والمر، وانتظم كبارهم في أرباب الشورى من المشيخة. ثم استنكف بنو رمان من انتظامهم معهم وحسدوهم ما آتاهم الله من فضله، وحذروهم على أنفسهم فاضطرمت بينهم نار العداوة والإحن، كان أولها الكلام والترافع إلى سدة السلطان بتونس على حين استقلال أبي حفص بأفريقية، ولعهد الأمير أبي زكريا وإبنه السلطان المستنصر.

ثم تناجزوا الحرب وتواقعوا سكك المدينة، وكانت صاغية الدولة مع بني رمان لقديمهم في البلد. ولما خرج الأمير أبو إسحق على أخيه محمد المستنصر لأول بيعته، ولحق بالزواودة من العرب وبايع له موسى بن محمد بن مسعود البلط أمير البدو يومئذ، واعتمل به بسكرة وبلاد الزاب، وأناخ عليها بكلكله كما قدمناه. قام يومئذ فضل بن علي بن أحمد بن الحسن بن علي بن مزني بدعوته، وأعلن بين أهل البلد بطاعته

واتبعوه على كره. ثم عاجلتهم عساكر السلطان وأجهضتهم عن الزاب فاعتلق فضل بن علي به، واستمسك بذيله وصحبه في طريقه إلى الأندلس، وبدار غربته منها، إلى أن هلك المستنصر أخوه. وهيأ الله له من أمر الخلافة ما هيا حسبما ذكرناه. ولما تم امره، واقتعد بتونس كرسي خلافته عقد لفضل بن علي على الزاب، ولأخيه عبد الواحد على بلد الجريد رعياً لذمة خدمتهما، وذكراً لائتلافهما في المنزل الخشن وصحبتهما، فقدم والياً على الزاب، ودخل بسكرة واستكان بنو رمان لصولته وانقادوا في مرضاة الدولة إلى أمره فلم ينبسوا بكلمة في شأنه، واضطلع بتلك الولاية ما شاء الله.

ثم كان شأن الدعي ابن أبي عمارة وتلبيسه، ومهلك السلطان أبي إسحق على

يده. ثم ثار منه السلطان أبو حفص بأخيه واسترجع ما ضاع من ملكهم، وكل منهم يثق بغنائه، ويعول في أمر الزاب على كفايته. وسيم أعداؤه بنو رمان أيام ولايته فداخلوا أولاد حريز من لطيف أحد بطون الأثابج، كانوا نزلوا بقرية ماشاش لضيق المدينة حين عجزوا عن الطعن، وخالطوا أهل البلد في أحوالهم، وامتزجوا معهم بالنسب والصهر فأغروهم بفضل بن علي أن يكون التقدم لهم في الفتك به، وتناول الأمر من يده، وأن يخربوا بيوتهم من قرية ماشاش بأيديهم ليسكنوا إليهم ويطمئنوا إلى ولايتهم حلفاً عقدوه على المكر بهم. ولما أوقعوا به بظاهر البلد في بعض أيام ركوبه سنة ثلاث وثمانين وستمائة، ونزلوا من أمر الزاب ما كان يتولاه تنكر لهم بنو رمان لحولين من ذلك الحلف، ونابذوهم العهد فخرجوا عن البلد، وفقدوا المأوى للتمرس بها من قريب فتفرقوا في بلد ريغة. واستبد بنو رمان بشورى بسكرة والزاب منتقضين عليهم وعلى السلطان، والزواودة قد تغلبوا عليه وعلى بلاد الحضنة، من ورائه نقاوس ومقرة والميلة. وكان منصور بن فضل بن علي عند مهلك أبيه بالحضرة في بعض شؤونه، فلما هلك أبوه واستبد بنو رمان بعده، بثوا السعايات فيه إلى السلطان بالحضرة فأنجحت وتقبض عليه واعتقل أيام السلطان أبي حفص

ولما تغلب المولى، أبو زكريا يحيى ابن الأمير أبي إسحق على بجاية وقسنطينة وبونة، واستقل بأمرها وانقسمت دولة آل أبي حفص بملكه ذلك منها، تمسك أهل الزاب بدعوة صاحب الحضرة المولى أبي حفص وفر منصور بن فضل بن علي من محبسه بتونس ولحق ببجاية بعهد مهلك الحاجب القائم بالأمر أبي الحسين بن سيد الناس، وتولية السلطان أبي زكريا مكانه، كاتبه أبا القاسم بن أبي يحيى سنة إحدى وتسعين وستمائة، فلازم خدمته وخص عليه وصانعه بوجوه التحف، وتضمن له تحويل الدعوة بالزاب لسلطانه، وتسريب أمواله وجبايته إليه واستماله بذلك، فعقد له على الزاب وأمده بعسكر فنازل بسكرة. ووفد أهلها بنو زيان على السلطان ببجاية ببيعتهم فرجعهم على الأعقاب إلى عاملهم منصور، وكتب إليه بقبول بيعتهم ودخل البلد سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وكادهم في بناء القصر لشيعته، وتحضن العسكر بسوره. ثم نابذهم العهد وثار بهم وأجلاهم عن البلد، واستمكن فيه ورسخت قدم إمارته، واستدر جباية السلطان، واتسع له نطاق العمالة فاستضاف إلى عمل الزاب جبل أوراس، وقرى ريغة وبلاد واركلي، وقرى الحصنة: مقرة ونقاوس والمسيلة. فعقد له السلطان على جميعها، ودفعه إلى مزاحمة العرب في جبايتها وانتهاش لحومها إذ كانوا قد غلبوا على سائر الضواحي فساهمهم في جبايتها، حتى كاد يغلبهم عليها. ووفر أموال الدولة وأنمى الخراج وصانع رجال السلطان فألقوا عليه بالمحبة، وجذبوا بضبعه إلى أقصى مراتب الاصطناع فأثرى واحتجن الأموال، ووشجت عروق رياسته ببسكرة، ورسخت منابت عزه. وهلك المولى أبو زكريا الأوسط على رأس المائة السابعة، وولوا مكانه إبنه الأمير أبا البقاء خالد كما قدمناه، وقام بأمره حاجبه أبو عبد الرحمن بن غمر.

وكان لمنصور بن فضل هذا اختصاص به واعتلاق بيد جاهه فاستنام إليه وعول في سائر الضواحي من ممالك السلطان على نظره، وعقد له على بلاد التل من أرض سدويكش وعياض فاستضافها إلى عمله، وجرد عن ساعد كفايته في جبايتها فلقح عقيمها وتفجرت ينابيعها. ثم حدثت بينه وبين

الدولة منافرة، وأجلب على قسنطينة بيحيى بن خالد ابن السلطان أبي إسحق، حاجبه تلمسان، وبايع له،

واستألف الزواودة لمشايعته، ونازل به قسنطينة ثم اطلع على كامن صدره فيه وما طوى عليه من التربص به فحل عقدته، ولحق بعسكره ببسكرة، وراجع الطاعة. ولحق به يحيى بن خالد فاعتقله إلى أن هلك سنة عشرين وسبعمائة، وكانت بينه وبين المرابطين أهل السنة من العرب أتباع سعادة المشهور الذكر فتن وحروب، طالبوه بترك المغارم والمكوس تخفيفاً عن الرعية وعملاً بالسنة التي كانوا ملتزمين لطريقها، ونازلوه من أجل ذلك ببسكرة مراراً. ثم هلك سعادة في بعض حروبه على مليلى كما مر في ذكره سنة خمس وسبعمائة. وجمع منصور بن مزني للمرابطين، وبعث عسكره يقوده ابنه عليّ بن منصور مع علي بن أحمد شيخ الزواودة، وعلى المرابط أبو يحيى بن أحمد أخوه ومعه رجالات المرابطين مثل: عيسى بن يحيى بن إدريس شيخ أولاد عساكر، وعطية بن سليمان بن سباع وحسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة فهزموا عسكر ابن مزني وقتلوا إبنه علياً وتقبضوا على عليّ بن أحمد، ثم منوا عليه وأطلقوه. ورجعوا إلى بسكرة فنازلوها وقطعوا نخيلها. ثم عاودوه ثانية وثالثة. ولم يزل الحرب بينه وبين هؤلاء المرابطين سائر أيامه. وكان الحاجب ابن غمر قد استخلصه لنفسه وأحفه محل الثقة بخلته والاستقامة إلى صفائه.

ولما نهض السلطان أبو البقاء إلى تونس صحبه الحاجب في جملته حتى إذا أعمل المكيدة في الانصراف عن السلطان شاركه في تدبيرها إلى أن تمت كما قدمناه. ورجع الحاجب إلى قسنطينة، وصرفه إلى مكان عمله من الزاب. وكان يتردد إليه ببجاية للزيارة والمطالعة في أعماله إلى أن غدر به العرب في بعض طرقه إليها. وتقبض عليه من أمراء الزواودة علي بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود، وسليمان بن علي بن سباع بن يحيى بن مسعود على حين اجتذبا حبل الأمارة من يد عثمان بن سباع بن شبل بن موسى بن محمد، واقتسما رياسة الزواودة قومهما فاستمكنا من هذا العامل منصور بن فضل في مرجعه من عمله ببلاد سدويكش، وأوثقوه اعتقالاً، وهموا بقتله فافتدى منهم بخمسة قناطير من الذهب، وارتاشوا بمكسوبهم وصرفوا في وجوه رياستهم إنفاقها. وقبض منصور بن فضل عنانه عن السفر بعدها إلا في الأحايين. وبعد أخذ الرهن من العرب إلى أن

كانت حركة مولانا السلطان أبي يحيى إلى تونس سنة سبع عشرة وسبعمائة أول حركاته إليها، وطالب حاجبه يعقوب بن غمر وهو بثغر بجاية بالأموال للنفقات والأعطيات، فبعث إليه بمنصور بن فضل وأشار بعقده له على حجابته ليقوم بأمره،
ويكفيه مهمات شؤونه. واعتدها منصور على ابن غمر فساء ظنه، وتنكر له ابن غمر، وحالت صبغة وده، وانكفأ السلطان من حركته تلك مخفق السعي بعد أن نزل ظاهر تونس بعساكره كما قدمناه. ولما احتل بقسنطينة بدت له من يعقوب بن غمر صاحب الثغر مخايل الامتناع فأقصر عن اللحاق به، وترددت بينهما الرسل، وبعث له ابن غمر في منصور بن فضل. ونذر منه بالشر فأجاب داعيه، وصحب قائد السلطان يومئذ محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس إليه، حتى إذا كان ببعض الطريق عدل إلى بلده، وهم به القائد فأجاره أولياؤه من العرب: عثمان بن الناصر شيخ أولاد حربي، ويعقوب بن إدريس شيخ أولاد خنفر ومن معهم من ذويهم. ولحق ببسكرة وبلغ الخبر إلى ابن غمر فقرع سن الندم عليه، وشايع منصور بن مزني عدوهم صاحب تلمسان أبا تاشفين ودخل في دعوته، وأوفد إبنه يوسف عليه بالطاعة والهدية. وملك السلطان خلال ذلك تونس وسائر بلاد أفريقية. وهلك ابن غمر سنة تسع عشرة وسبعمائة، ولم يزل منصور بن مزني ممتنعاً سائر أيامه على الدولة، والعساكر من بجاية تتردد لمنازلته إلى أن هلك سنة خمس وعشرين وسبعمائة، وقام بأمره من بعده إبنه عبد الواحد فعقد له السلطان على عمل أبيه بالزاب، واستضاف إليه ما وراءه من البلاد الصحراوية: قرى ريغة ووارکلي. وكان السلطان قد عقد على الثغر بعد مهلك ابن عمر لمحمد بن أبي الحسين بن سيد الناس، وجعل له كفالة إبنه يحيى ودفعه إليه، فتجددت الوحشة بين عبد الواحد هذا وبين صاحب الثغر في سبيل المنافسة في المرتبة عند السلطان، لما كانوا جميعاً صنائع وبطانة للحاجب ابن عمر. وبعث العساكر لحربه ومنازلة حصنه. وناول عبد الواحد هذا لآل زيان مخانقي الدولة طرفاً من حبل طاعته تقبل فيها مذهب أبيه آخر عمره. وطال تمرس الجيوش به إلى أن استجن منه عبد الواحد بصهر عقد له على إبنته، واشتراط المهادنة وتسليم الجباية، وتودع أمره إلى

أن اغتاله أخوه يوسف سنة تسع وعشرين وسبعمائة بمداخلة بطانتهم من بني

سماط وبني أبي كواية. ولما أحكم مداخلتهم آذنه عشاء للشورى معه في بعض المهمات، وطعنه بخنجره فأشواه وهلك لحينه. واستقل يوسف بن منصور بأمارة الزاب، ووصله مرسوم السلطان بالتقليد والخلع على العادة، وأجرى الرسم في الدعاء له على منابرعمله.

وكان السلطان قد استدعى محمد بن سيد الناس من الثغر لحجابته، وفوض له

أمور مهلكه فلهجت نار العداوة والإحن القديمة ما بينه وبين يوسف بن منصور عامل الزاب، وهم به لولا ما أخذ بحجنرته من الشغل الشاغل للدولة بتحيف آل زيان وهلك الحاجب سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة في نكبة السلطان إياه كما ذكرناه، وعقد لمحمد بن الحكيم على القيادة وجعل بيده زمام العساكر، وفوض له في سائر القرى والضواحي فأجرى رياسته وحكمه في دولته، وتغلب على أمره حين فرغ السلطان من الشغل بمدافعة عدوه، وحط ما كان من إصرهم على كاهل دولته. ونهض السلطان أبو الحسن إلى يغمراسن فقلم أظفار أعدائهم وفل شبا عزائمهم كما شرحناه قبل، فأذكى القائد محمد بن الحكيم مع يوسف بن منصور نار العداوة. وأثار له من السلطان كامن الحفيظة وصرف وجوه العزائم إلى حمله على الجادة وتقويمه عن المراوغة في الطاعة، وناهضه بالعساكر مرات ثلاثاً يدافعه في كلها بتسليم الجباية إليه. ثم كانت بينه وبين علي بن أحمد كبير الزواودة فتن وحروب دعا إليها منافسة علي في استئثاره بمال الجباية دونه فواضعه الحرب، ودعا العرب إلى منازلته مموهاً بالدعاء إلى السنة. وحشد أهل ريغ لذلك ونازله، وانحرف عنه إبنه يعقوب ودخل إلى بسكرة فأصهر له ابن مزني في أخته بنت منصور بن فضل. وعقد له عليها فحسن دفاعه عنه، وبعث ابن مزني عن سليمان بن علي كبير أولاد سباع، وقريع علي بن أحمد في شؤونه، فكان عنده ببسكرة يغاديه القتال ويراوحه إلى أن امتنع ابن مزني.

ورحل علي ابن أحمد بن بسكرة، وصار مع ابن مزني إلى الاتفاق والمهادنة أعوام الأربعين من المائة الثامنة. ثم كانت غزاة القائد ابن الحكيم

إليه نهض من أفريقية بعد أن نازل بلاد الجريد، واقتضى طاعتهم ومغارمهم، واسترهن ولد ابن يملول. ثم

ارتحل إلى الزاب في جنوده ومعه العرب من سليم فأجفل بالزاب ونزل بلد أوماش من قراه، وفرت العرب من الزواودة وسائر رياح أمامه، ودافعه يوسف بن مزني بهديته، دفعها إليه وهو بمكانه من أوماش. وارتحل عنه إلى بلاد ريغ فافتتح تقرت معقلهم واستباحها ودوخ سائر أعماله. ورجع إلى تونس ونكب السلطان قائده محمد بن الحكيم هذا سنة أربع وأربعين وسبعمائة، وولى إبنه أبا حفص عمر. وخشي الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرتة بطانته، فلحق بملك المغرب المرهوب الشبا المطل على الممالك، يعسوب القبائل والعشائر أبي الحسن، وأغراه بملك أفريقية واستجره إليها فنهض في الأمم العريضة سنة
ثمان وأربعين وسبعمائة كما ذكرنا ذلك كله من قبل. ووفد عليه يوسف بن منصور أمير الزاب بمعسكره من بني حسن فلقاه براً وترحيباً واستتبعه في جملته إلى قسنطينة. ثم عقد له على الزاب وما وراءه من قرى ريغة ووارکلي، وصرفه إلى عمالته. واستقبل تونس، وأمره برفع الجباية إليه مع العمال القادمين من أقصى المغرب على رأس الحول فاستعذ لذلك، حتى إذا سمع بوصولهم من المغرب لحقهم بقسنطينة، وفجأهم هنالك جميعاً الخبر بنكبة السلطان على القيروان كما ذكرناه، فاعتزم على اللحاق ببلده.
واعصوصب عليه يعقوب بن علي بن أحمد أمير البدو بالناحية القريبة من أفريقية
لأزمة صهر كانت بينهما ومخالصة. وتحيز إليهم من كان بقسنطينة من أولياء السلطان وحاشيته وعماله، ورسل الطاغية والسودان الوافدين مع إبنه عبد الله من أصاغر بنيه، أواهم يوسف بن منصور جميعاً إليه، وأنزلهم ببلده وكفاهم مهماتهم شهوراً من الدهر حتى خلص السلطان من القيروان إلى تونس، ولحقوا به مع يعقوب بن علي فكانت تلك يداً اتخذها يوسف بن يعقوب عند السلطان أبي الحسن وبنيه باقي الأيام. ثم أتبع ذلك بمخالفة رؤساء النواحي من أفريقية جميعاً في الانتقاض عليه، وأقام متمسكاً بطاعته يسرب الأموال إليه بتونس وبالجزائر عند خلوصه إليها من النكبة البحرية كما سنذكره، ويدعو له على منابره بعد تقويضه عن الجزائر إلى المغرب الأقصى لاسترجاع ملكه، إلى أن هلك السلطان أبو الحسن بجبل

هنتاتة من أقصى المغرب سنة إثنتين وخمسين وسبعمائة واستقام أمر الدولة المرينية الحية الذكر لإبنه السلطان أبي

عنان الحية الذكر ولما استضاف إلى ملكه ملك تلمسان، ومحا ما جدده بنو عبد الواد من رسوم ملكهم وجمع كلمة زناتة، وأطل على البلاد الشرقية سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، بادر يوسف بن منصور بطاعته فأتاها طواعية، وأوفد على السلطان رسله بكتاب بيعته. ثم أوفد عليه ثانياً مع حاجبه الكاتب أبي عبد الله محمد بن أبي عمر، وبعثه بالعساكر لتدويخ أفريقية وتمهيد ملكه ببجاية كما سنذكره. وأوفد عليه أمراء القبائل والبدو ورؤساء النواحي سنة أربع وخمسين وسبعمائة، ووفد في جملتهم يوسد بن منصور أمير الزاب، ويعقوب بن علي أمير البدو وسائر الزواودة فلقاه السلطان تكرمة ورعياً لأزمة خلوصهم لأبيه وقومه من بين أهل أفريقية، وأسنى جوائزهم. وعقد ليوسف بن مزني على الزاب وما وراءه من بلاد ريغة ووارکلي على عادته وانقلب محبواً محبوراً.

وقد ثبت له من ولاية السلطان ومخالصته حظ، ورفع له ببساطه مجلس. ولما نهض السلطان إلى أفريقية لافتتاح قسنطينة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة كما سنذكره تلقاه يوسف بن منصور على قسنطينة فخلطه بأوليائه، ونظمه في طبقات وزرائه. واستوحش يعقوب بن علي يومئذ من مطالبته بالرهن له ولقومه وانتقض، وأجفلت أحياؤه إلى بلاد الزاب. وخرب بلاد يعقوب بن علي بالزاب والتل بقطع شجرائها وبغور مياهها، وبهدم بنائها وبنسف آثارها. ودخل يعقوب بأحيائه الرمل وأعجزوا السلطان فانكفأ راجعاً، واحتل بظاهر بسكرة فتلوم بها ثلاثا لإراحة العساكر وإزاحة عللهم من وعثاء السفر وشعث الصحراء، فغرب يوسف بن منصور في قرى عسكره أيام مقامه شملهم فيها من العلوفة والحنطة واللحمان والأدم بما أرغد عيشهم وكفاهم مهمهم. وتحدث بها الناس دهراً ورفع إليه جباية الزاب لعامه قناطير من الذهب دفعه ببيت المال فقبضه القهارمة من ثقاته، وأجزل السلطان مثوبته وأسنى عطيته، واختصه بكسوة ثيابه وعياله من كسى حرمه وثياب قصره. وانكفأ راجعاً إلى حضرته. ثم أوفد يوسف بن منصور إبنه أحمد على السلطان بسدته من فاس عند منصرف وزيره سليمان بن داود من حركة أفريقية سنة تسع وخمسين وسبعمائة، وأصحبه هدية من عتاق الخيل وفاره الرقيق. وأقام أياماً في نزل

كريم ومحل من المجلس رفيع إلى أن هلك السلطان خاتمة تسع وخمسين وسبعمائة، فأرغد القائم بالدولة من بعده جائزته وأسنى صلته وصرفه إلى عمله، واستوصى به أمراء النواحي والثغور في طريقه. ولم ينشب أن شبت نار الفتنة، وانتزى الخوارج بالجهات بعد مهلك السلطان فخلص إلى أبيه بعد عنائه وعلى يأس من النحاة بعد أن حصل في قبضة أبي حمو سلطان بني عبد الواد عند استيلائه على تلمسان، وهو بها مع بني مرين، وقد مر بهم مجتازاً إلى وطنه فأجاره عليه صغير بن عامر شيخ بني عامر من زغبة رعياً لأزمة إبنه يوسف صاحب الزاب، وتأميلاً للعرب فيه وفي أعماله. وبعد أن بذل له من يده، ومن طرف ما وصله بنو مرين من ذخائرهم فبعث معه صغير ركاباً من قومه أبلغوه فكانت إحدى الغرائب في نجاته.

واسترجع الموحدون ثغورهم: بجاية وقسنطينة من يد بني مرين وأزعجوا عنها العساكر المجمرة بها من قبائلهم كما قدمناه، فراجع يوسف بن منصور طاعته المعروفة إلى أن هلك سنة سبع وستين وسبعمائة ليوم عاشوراء، وقام بأمره إبنه أحمد، وجرى على سننه وهو لهذا العهد أمير على الزاب بمحل أبيه من إمارته متقبل في مذهبه وطريقه إلا أن خلق أبيه

كان سخية وخلق هذا تلهوقاً لما فيه من التحذلق، وربك يخلق ما يشاء ويختار. وله ولد كبيرهم أبو يحيى من بنت محمد بن يملول أخت يحيى، وهو لهذا العهد مرشح لمكانه. ولما حفت بهل الجريد الفاقرة ونزل به يحيى بن يملول المشؤوم على وطنه توجس الخيفة من السلطان وتوقع المطالبة بطاعة غير طاعته المعروفة، فسرب الأموال في العرب ومد يده إلى حبل صاحب تلمسان ليتمسك به فوجده قاصراً عنه. وأقام يقدم في أمره رجلاً ويؤخر أخرى،. ثم قذف الله نور الهداية في قلبه، وأراه سنن رشده. وبادر إلى الاستقامة في الطاعة والعدول عن المراوغة، ووصله وافد السلطان أبي العباس شيخ الموحدين أبو عبدالله بن أبي هلال، وكشف له قناع المخالصة والانحيالش، وبعث معه وفده بهديته واستقامته وتقبله السلطان وأعاده إلى أحسن الأحوال من الرضى عنه، والله متولي الأمور سبحانه لارب سواه ولا معبود إلا إياه.

الخبر عن رياسة بني يملول بتوزر وبني الخلف بنفطة وبني أبي منيع بالحامة:

زعيم هؤلاء الرؤساء ابن يملول صاحب توزر، لاتساع بلده وتمدن مصره واحتلاله

منها بأم القرى من قطره، وهو يحيى بن محمد بن يملول. ونسبهم بزعمهم في طوالع العرب من تنوخ، استقرار أولوه بهذا الصقع منذ أول الفتح فعفوا وتأثلوا ووشجت به عروقهم نسباً وصهراً حتى انتظموا في بيوت الشورى المتقدمين للوفادة على الملوك وتلقي العمال القادمين من دار الخلافة والنظر في مصالح الكافة أيام آل حماد بالقلعة، وآل عبد المؤمن بمراكش وآل أبي حفص بتونس: مثل بني واطاس وبني فرقان وبني ماردة وبني عوض. وكان التقدم فيهم أيام عبيد الله الشيعي لابن فرقان، وهو الذي أخرج أبا يزيد حين شعر أنه يروم القيام على أبي القاسم القائم، وأيام آل حماد ليحيى بن واطاس، وهو النازع بطاعة أهل قسنطينة إليهم عن آل بلكين ملوك القيروان حين انقسمت دولة آل زيري، وافترق أمرهم. ثم عادت الرياسة لبني فرقان لأول دولة الموحدين، ومنهم كان الذي لقي عبد المؤمن وأتاه الطاعة عن نفسه وعن أهل بلده توزر، فتقبله ووصله. وصار الأمر للموحدين فمحوا منها آثار المشيخة والاستبداد. ونشأ أحمد هذا الجد متراملياً إلى الرياسة بهذا القطر يدافع عنه بالراح، ويزاحم بالمناكب من وجوه البلد

وأشراف الوطن. وسعى به إلى شيخ الموحدين وقائد العسكر أيام السلطان أبي حفص محمد الفازاري فنكبه وصادره على مال امتحنه عليه. كانت أول نكباته التي أورت من زناده وأوقدت من جمره، وتخلص إلى الحضرة يؤمل اقتعاد مطيته وثبوت مركزه من دار الخلافة فأوطنها أياماً يباكر أبواب الوزراء والخاصة، ويلثم أطراف الأولياء والحاشية، ويبذل كرائم ماله فيما يزلفه لديهم، ويؤثره بعنايتهم، حتى استعمل بديوان البحر مقعد العمال بمرفأ السفن لجباية الأعشار من تجار دار الحرب. ثم استضاف بما كان من غنائه فيها واضطلاعه سائر أعمال الحضرة فتقلدها زعيماً بإمضاء الجرايات وإدرار الجباية، واستمرت على ذلك حاله وتضاعفت فائدته فأثرى واحتجن المال، واستخلص الذخيرة قاطعاً لألسنة السعاية المصانعة والإتحاف بطرف ما يجلبه الروم من بضائعهم حتى أبطره الغنى، ودلت على مكامنه الثروة، ورفع أمره إلى الحاجب فخرج التوقيع بالقبض عليه، واستصفاء ماله لعهد السلطان أبي يحيى اللحياني فنكب الثانية وصودر على مئتين من آلاف الدنانير وامتحن لها، وباع فيها مكسوبه حتى من الكتب. وخلص من النكبة مثلوب الأمانة ممزق الأديم فقيد الرياش، أحوج ما كان إلى ما يعوز من الكن والدفء وبلالة العيش. ولحق ببلده ناجياً بالرمق ضارعاً للدهر.

ودفعه الملأ إلى ما يستنكفون عنه من خدمة العمال ومباكرة أبوابهم والامتهان في ضروراتهم، وأنجده في ذلك بخت جذب بضبعه. وكان في خلال ذلك شغل الحضرة شأن الثغور الغربية وأمرائها فتقلص ظل الدولة عن هؤلاء بعض الشيء، وهملت الرعايا بالبلاد الجريدية، وصار أمرها إلى الشورى التي كانت عليها قبل. فلما أدرك أحمد هذه الشورى التي كان يسمو لها سمو حباب الماء ثلج صدره، وأنجح سعيه، واستبد بمشيخة توزر. وهلك في أعوام ثمان عشرة فخلفه من بعده في سبيله تلك ولده يحيى طموحاً إلى الرتبة منافساً في الاستقلال. مزاحماً بيوتات المصر بمناكب استوصلها سائر عمره من

الدعار والأوغاد بمعاقرة الخمر والمجاراة في فنون

الشباب ليستبد أمره، والاستيلاء على نظرائه حتى تطارحوا في هوة المهلك بين قتيل ومغرب ومخيف العمران لم تعطفه عليهم عواطف الرحم، ولا زجره وازع التقوى والسلطان، حتى خلا له الجو واستوسق الأمر، واستقر من أمر البلد والحل والعقد بأوفى من استبداد أبيه. وكان مهلكه قريباً من استبداده لخمس سنين متلقياً الكرة من يده أخوه تربه في الرياسة ومجاريه في مضمارها، فأجرى إلى الغاية واقتعد كرسي الرياسة وعفى على آثار المشيخة. واستظهر على أمره بمصانعة أمراء البدو وأولاد أبي الليل، والمتات إليهم بصهر كان عقده أبوه أحمد لأبي الليل جدهم على أخته أو عمته. فكانوا رداء له من الدولة فبعد صيته، وعظم استيلاؤه، وامتدت أيامه، وعنى الملوك بخطابه وإسناد الأمور في تلك البلاد إليه خلال ما تعود الكرة وتهب ريح الدولة. وزحف إليه القائد محمد بن الحكيم سني أربعين فلاذ منه بالطاعة والمصانعة بالمال، ورهنه ولده يحيى فرجعه إليه ابن الحكيم وتقبل طاعته من غير رهن استقامة لما ابتلاه من خلوصه. وأقام على ذلك إلى أن هلك أعوام أربعة وأربعين من المائة الثامنة.

وتصدى ولده عبد الله للقيام بالأمر فوثب عليه عمه أبو زيد بن أحمد فقتله على

جدث أبيه صبح مواراته، بعد أن كان أظهر الرضى به والتسليم له فثارت به العامة لحينه، وكان مصرعهما واحداً. وقام بالأمر أخوه يملول بن أحمد أربعة أشهر كانت شر مدة وأسوأ ولاية، لما أصاب الناس بسوء ملكته من سفك الدماء واستباحة الحرم واغتصاب الأموال، حتى كان ينسب إلى الجنون مرة وإلى الكفر مرة أخرى فمرج أمرهم واستولى الضجر على نفوسهم. وكان أخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فراسله أهل توزر سراً، وأطلقه السلطان من محبسه بعد أن أخذت عليه المواثيق بالطاعة والوفاء بالجباية فصمد إليها بمن في لفه من الأعراب وحشد نفزاوة المجاورين لها في القرى الظاهرة المقدرة السير، وأجلب عليهم، ثم بيتها فافتتحها. وبادر الناس إلى القبض على يملول أخيه وأمكنه منه فاعتقله بداره وتبرأ من دمه، وأصبح لثالثة اعتقاله ميتا بمحبسه.وكانت قفصة من قبل ذلك لما صار أمر الجريد إلى الشورى قد استبد بها يحيى بن

محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد من بيوتها، ونسبهم في زعمهم في بلى ولهم خلف بزعمهم في الشريد من بطون سليم. والله أعلم بأولية نزولهم بقفصة

حتى التحموا بأهلها وانتظموا أمر بيوتاتها. وكانت البيوت بها بيت بني عبد الصمد وبيت بني أبي زيد، وكانت رياسته لبعض بني أبي زيد لعهد الأمير أبي زكريا الأعلى، كان يستعمله على جباية أموال الجريد، ثم سعى به أنه أصاب منها فنكبه وصودر على آلاف من المال فأعطاها، وأقامت رياستهم متفرقة في هذه البيوتات.

ولما حدثت العصبية بالبلد أيام صار أمر الجريد إلى الشورى، كان بنو العابد هؤلاء

أقوى عصبية من سائرهم، واستبد بها كبيرهم يحيى بن علي. فلما فرغ السلطان من شغله بزناتة، وجثم السلطان أبو الحسن على تلمسان يحاصرها. وأقبل السلطان على النظر في تمهيد ملكه وإصلاح ثغوره، وافتتح أمره بغزو قفصة، ونهض إليها سنة خمس وثلاثين وسبعمائة في عساكره من الموحدين وطبقات الجند والأولياء من العرب فحاصرها شهراً أو نحوها، وقطع نخيلها، وضاق عنقهم بالحصار وتلاوموا في الطاعة. واستبقوا بها إلى السلطان، وفر الكثير من بني العابد فلحقوا بقابس في جوار ابن مكي. ونزل أهل البلد على حكم السلطان فتقبل طاعتهم وأحسن التجاوز عنهم، وبسط المعدلة فيهم وأحسب أمل ذوي الحاجات منهم، وانكفأ راجعا إلى حضرته بعد أن آثرهم بسكنى ولده المخصوص بعدئذ بعهده الأمير أبي العباس وأنزله بين ظهرانيهم، وعقد له على بلاد الجريد، واحتمل مقدم قفصة يحيى بن علي إلى الحضرة فلم يزل بها إلى أن هلك سنة أربع وأربعين وسبعمائة واستبد الأمير أبو العباس بأمر الجريد، واستولى على نفطة كما قدمناه. وقتل بني خلف وهم: مدافع وأبو بكر وعبد الله ومحمد، وإبنه أحمد بن محمد، إخوة أربعة، وابن أخيهم الخلف بن علي بن الخلف بن مدافع، ونسبهم في غسان في طوالع العرب.

وانتقل جدهم من بعض قرى يفزاوة إلى نفطة وتأثل بها، وكان لبنيه بها بيت

واستبد هؤلاء الإخوة الأربعة أزمان الشورى كما قدمناه. ولما استولى السلطان أبو بكر على الجريد، وأنزل إبنه أبا العباس بقفصة، وعقد له على سائر أمصاره اقتضى طاعتهم فامتنعوا فسرح إليهم وزيره أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين. وجهزت له العساكر من الحضرة، ونازلها وقطع نخلها فلاذ أهلها بالطاعة، وأسلموا بني مدافع المتغلبين فضرب أعناقهم وصلبهم في جذوع النخل آية للمعتبرين. وأفلت السيف منهم علياً صغيرهم لذمة اعتدها له أبو القاسم بن عتو لنزوعه قبل الحادثة،

فكانت واقيته من الهلكة. واستولى الأمير أبو العباس على نفطة واستضافها إلى عمله. ثم مرض أبو بكر بن يملول في طاعته فنهض إليه السلطان أبو بكر من تونس سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وكان الفتح كما قدمناه. ولحق أبو بكر بن يملول ببسكرة فلم يزل بها إلى أن أجلب على توزر فنبذ إليه يوسف بن مزني عهده، وانتقل إلى حصون وادي ابن يملول المجاورة لتوزر، وهلك سنة ست وأربعين. ثم كان مهلك السلطان وإبنه الأمير أبي العباس صاحب الأعمال الجريدية إثر ذلك سنة سبع وأربعين وسبعمائة ورجع إلى كل مصر من الجريد مقدموه فرجع أحمد بن العابد إلى قفصة من مكانه في جوار ابن مكي واستولى على بلده في مكان ابن عمه يحيى بن علي، ورجع علي بن الخلف إلى نفطة واستبد بها، ورجع يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول إلى توزر من مثوى اغترابه ببسكرة، وارتحل إليها مع عمه أبي بكر طفلاً، فلما خلا الجديد من الأمارة درج يحيى هذا من عشه في جوار يوسف بن منصور بن مزني، وأطلقه مع أولاد مهلهل من الكعوب بعد أن وصلهم وشارطهم، واسترهن فيه أبناءهم فأوصلوه إلى محل رياسته بتوزر، ونصبه شيعته وأولياء أبيه، وقاموا بأمره. ورجع أمر الجريد كله إلى رياسة مقدمه كما كان.

ثم وفدوا على السلطان أبي الحسن عند زحفه إلى أفريقية ولقوه بوهران فلقاهم

مبرة وتكرمة ورجع كلاً إلى بلده ومحل رياسته بعد أن أسنى الجائزة، ووفر الإسهام والأقطاع، وأنفذ الصكوك والكتب: فرجع إلى توزر يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول صبياً مغتلماً، وإلى نفطة علي بن الخلف بن مدافع، وإلى قفصة أحمد بن عمر بن العابد. وأنزل بكل واحد من هذه الأمصار عاملاً وحامية. وعقد على الجريد كله لمسعود بن ابراهيم بن عيسى اليرنياني من طبقة وزرائه، واستوصى لهؤلاء الرؤساء خيرا في جواره. حتى إذا كانت نكبة السلطان بالقيروان سنة تسع وأربعين وسبعمائة، وارتحل عامل الجريد مسعود بن إبراهيم يريد المغرب بمن معه من العمال والحامية، ونمي خبره إلى الأعراب من كرفة فصبحوه في بعض مراحل سفره دون أرض الزاب فاستلحموه ومن كان معه من الحامية، واستولوا على أبنيتهم وذخيرتهم

وكراعهم، واستبد رؤساء تلك البلاد بأمصارهم وعادوا إلى ديدنهم من التمريض، وآذنوا بالدعاء لصاحب الحضرة

بمنابرهم، واستمروا على ذلك. فأما يحيى بن محمد بن يملول فنزع إلى مناغاة الملوك في الشارة والحجاب واتخاذ الآلة والبيت المقصور للصلاة، واقتعاد الأريكة وخطاب التمويل.و فسح للمجون والعكوف على اللذات مجالاً، يرى أن جماع السياسة والملك في إدارة الكأس وافتراش الاس والحجبة عن الناس والتأله على الندمان والجلاس. وفتح مع ذلك على رعيته وأهل إيالته باب العسف والجور. وربما بيت مشاهيرهم غيلة فأتلف نفوسهم، وامتد أمره في ذلك إلى أن استولى السلطان أبو العباس على أفريقية، وكان من أمره ما نذكره. وأما جاره الجنب علي بن الخلف فلم يلبث لما استبد برياسته أن حج سنة أربع وستين وسبعمائة، والتزم مذاهب الخير وطرق الرضى والعدالة، وهلك سنة خمس وستين وسبعمائة بعدها، وولي مكانه إبنه محمد جمارياً على سننه. ثم هلك لسنة من ولايته وقام بأمره أخوه عبد الله بن علي فأذكى سياسته، وأيقظ حزمه وأرهف للناس حده فنقموا عليه سيرته، وسيموا عسفه، واستمكن مناهضهم في الشرف ومحاذيهم في رياسة البلد القاضي محمد بن خلف الله من صاحب الحضرة بذمة كانت له في خدمة قديماً استعمله لرعيها في خطة القضاء بحضرته، وآثره بالمكان منه والصحبة فسعى بعبد الله هذا عند الخليفة، ودله على مكامن هلكته، وبصره بعورات بلده. واقتاد عساكر السلطان إليه في زمامه.

ولما احتل بظاهر البلد وعبد الله رئيسها أشذ ما كان قوة وأكثر جمعاً وأمضى عزماً استألف أخوه الخلف بن علي بن الخلف جماعة المشيخة دونه، وحرضهم عليه وداخل القاضي في تبييت البلد، وأنه بالمرصاد في اقتحامها، حتى إذا كانت الهيعة دس إلى بعض الأوغاد في قتل أخيه عبد الله، ومكر بالقاضي والعسكر وامتنع عليهم واعتصم دونهم، واستقل برياسة بلده وأقام على ذلك يناغي ابن يملول في سيره ويطارحه الكثير من مذاهبه، ويجري في الشأو الذي بلغ إلى غايته وأوفى على ثنيته. وأما أحمد بن عمر بن العابد فلم يزل من لدن استبداده في قفصة سالكاً مسالك الخمول، منحطاً عن رتب التكبير منتحلاً مذاهب أهل الخير والعدالة في شارته وزيه ومريهبه، جانحاً إلى التقفل. فلما أوفى على شرف من العمر استبد عليه ابنه محمد،

وترفع عن حال أبيه بعض الشيء إلى مناغاة هؤلاء المترفين، فبينما هؤلاء المتقدمون في هذه الحال من الاستبداد على السلطان والتخلق بأخلاق الملوك، والتثاقل على الرعايا بالتعسف والجور، واستحداث المكوس والضرائب إذا أطل على مفاحصهم السلطان أبو العباس بالحضرة مستبداً بدعوته، صارفاً إلى فتحها عزائمه فوجموا وتوجسوا الخيفة منه. وائتمروا في المظاهرة واتصال اليد بعد أن كانوا يستحثونه إلى الحضرة، ويبعثون إليه بالانحياش

على البعد زبوناً على صاحب الحضرة ونزوعاً عن مصدوقة الطاعة. فلما استبد السلطان أبو العباس بالدعوة استرابوا في أمرهم وسربوا أموالهم في الأعراب المخالفين على السلطان من الكعوب، يؤملون مدافعتهم عنهم فشفر لها أولاد أبي الليل بما كان وقع بينهم وبين السلطان من النفرة. ونهض إليهم السلطان فغلبهم على ضواحي أفريقية وعلى الظواعن التي كانت جبايتها لهم من مرنجيزة كما قلناه، واكتسحهم فأوهن بذلك من قوتهم.

ثم زحف الثانية إلى أمصار الجريد فلاذوا بالامتناع فأناخ السلطان بعساكره وأوليائه

من العرب أولاد مهلهل على قفصة فقاتلوها يوماً أو بعض يوم، وغدا في ثانيه على نخيلهم يقطعها فكأنما يقطع بذلك أمعاءهم في فنبرأوا من مقدمهم، وشعر بذلك فبادر إلى السلطان ونزل على حكمه فتقبض عليه وعلى إبنه شهر ذي القعدة من سنة ثمانين وسبعمائة، وتملك البلد، واستولى على ديار ابن العابد بما فيها. وكان شيئاً لا يعبر عنه لطول أيامه في الولاية وكثرة احتجانه للأموال. وعقد السلطان على قفصة لابنه أبي بكر وارتحل يريد توزر، وطار الخبر لابن يملول في توزر فقوض عنها بأهله، ونزل على أحياء مرداس وسرب فيهم المال فرحلوا معه إلى الزاب، ولحق ببسكرة مأوى نكباته ومنتهى مفره فنزل بها على أحمد بن يوسف بن مزني، وأقام هنالك على قلعة من توقع مطالبة السلطان له ولجاره ابن مزني، وخسارة أموالهم في زبون العرب وسوء المغبة إلى أن هلك لسنة أو نحوها. وائتمر أهل توزر بعد تقويضه عنهم، وبعثوا إلى السلطان ببيعتهم فلقيته أثناء

طريقه، وتقدم إلى البلد فنزل بقصور ابن يملول، واستولى على ذخيرته وتبرأ إليه أهل البلد من ودائع كانت له عندهم من خالص

الذخيرة فرفعوها إلى السلطان. وعقد لإبنه المنتصر على توزر، واستقدم الخلف بن الخلف من نفطة. وكان يخالف أصحابه إلى الطاعة متى نقضوها زبوناً على يملول وسالفة من العداوة كان يتقبلها. فلما احيط بهم أدركه الدهش بطاعته فأتاها، وقدم عليه فتقبل السلطان ظاهره وأغضى له عن غيرها طمعاً في استصلاحه، وعقد له على حجابة إبنه المنتصر وأنزله معه بتوزر وأمره بالاستخلاف على بلده نفطة، وعقد له على ولايتها وانكفأ راجعاً إلى الحضرة، وقدم ابن الخلف على أمره ورأى أنه قد تورط في الهلكة فراسل ابن يملول بمكانه من توزر، وعثر أولياء السلطان على كتابه إلى يعقوب بز علي شيخ رياح ومدره حروبهم على صريخ ابن

يملول ومعونته فعلموا نكثه ومداجاته، وبادروا إلى التقبض عليه، وولوا على نفطة من قبلهم وخاطبوا السلطان بالشأن، وأقام في اعتقاله إلى أن كانت حادثة قفصة، فبادر الأمير المنتصر إلى قتله.

وكان من خبر قفصة أن ابن أبي زيد من مشيختها كان نزع إلى السلطان قبل فتحها

هو وأخوه لمنافسة بينهما وبين ابن العابد، وهما: محمد وأحمد إبنا عبد العزيز بن عبد الله بن أحمد بن عليّ بن عمر بن أبي زيد. وقد ذكرنا أوليتهم واستعمال سلفهم أيام الأمير أبي زكريا الأعلى في جباية الجريد. فلما استولى على البلد رعى لهما تشيعهما وبدارهما إلى طاعته مع قديمهما فأنزلهما مع إبنه بقفصة، وكبيرهما رديف لحاجبه عبد الله من الموالي الأتراك ومدبر لأمور البلد في طاعة السلطان. ثم نزغ الشيطان في صدره، وحدثته نفسه بالاستبداد، وأقام يتحين له الفرص. وذهب الأمير أبو بكر إلى زيارة أخيه بتوزر فكاده في التخلف عنه، وجمع أوباشاً من الغوغاء والزعانف وتقدم بهم إلى القصبة للفتك بعبد الله التريكي، ونذر بذلك فأغلق أبواب القصبة، وبعث الصريخ في أهل القرى، وقاتلهم ساعة من نهار حتى وافى إليه المدد. فلما استغلظ بمدده أدركهم الدهش وانفض الأشرار من حولهم ولجأوا إلى الاختفاء في بيوت البلد، وتقبض على الكثير مفن داخلهم في الثورة، ووصل الخبر إلى الأمير

ِ◌ أبي بكر بتوزر فبادر إلى مكانه، وقد سكنت الهيعة فاستلحم جميع من تقبض عليه حاجبه ونادى في الناس بالبراءة من أبي زيد فتبرأوا منه. وعثر الحرس عليه وعلى أخيه خارجين من أبواب البلد في زفي النساء فقادهما إليه فقتلهما بعدأن مثل بهما.

وبادر المولى المنتصر بتوزر لقتل الخلف بن الخلف أن يخوض في مثلها فذهب

في غير مرحمة لم يعطف عليه رحم، ولا تكنه سماء ولا أرض. واستبد السلطان بالجريد ومحا منه آثار المشيخة وعفا عليها وانتظمه في عمالات السلطان. وأما بلد الحامة وهي من عمالات قسطيلية وتعرف بحافة قابس وحامة مطماطة نسبة إلى أهلها الموطنين كانوا بها من البربر، وهم فيما يقال الذين اختطوها، وأما الآن ففيها ثلاث قبائل من توجن وبني ورياجن وهم في العصبية فرقتان: أولاد يوسف ورياستهم في أولاد أبي منيع وأولاد جحاف ورياسهم في أولاد وشاح، ولا أدري كيف نسب لفرقتين. فأما بنو أبي منيع فالحديث عن رياستهم في قومهم أن جدهم رجا بن يوسف كان له ثلاثة من الولد وهم:

بوساك ويحمد وملالت وأن رئاسته بعده كانت لإبنه بوساك ثم إبنه أبي منيع من بعده، ثم لابنه حسن بن أبي منيع ثم لإبنه محمد بن حسن، ثم لأخيه موسى بن حسن ثم لأخيهما ابن علان إلى أن كان ما نذكر. وأما أولاد جحاف فكانت أول رياستهم لمحمد بن أحمد بن وشاح، وقبله خاله القاضي عمر بن كلى. وكان العمال من الحضرة يتعاقبون فيهم إلى أن أسقط السلطان عنهم الخراج والمغارم بأمرها. وكان مقدمهم لأول دولة السلطان أبي بكر من أولاد أبي منيع، وهو موسى بن حسن. وكان المديوني قائد السلطان والياً عليهم، وارتاب بهم بعض الأيام وأحبوا الثورة به فدس بها إلى السلطان في بعض حركاته، وغزاهم بنفسه ففروا، وأدرك سبعة من أولاد يوسف هؤلاء وتقبض عليهم فقتلوا. ثم رجع الأمر وولي موسى بن حسن. ولما هلك ولي بعده أخوه أبو علأن، وطال أمد ولايته عليهم وكان منسوباً إلى الخير والعفاف. وهلك سنة إثنتين

وأربعين وسبعمائة، وولي بعده إبنه عمر، ثم ابنه الآخر أبو زيان. ثم وئي بعدهما ابن عمهما مولاهم ابن محمد. ووفد على السلطان أبي الحسن مع وفد أهل الجريد كما مر. ثم هلك فولي بعده من بني عمهم حسان بن هجرس، وثار به محمد بن أحمد بن وشاح من أولاد جحاف المذكور فعزله، وأقام في ولايتها إلى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، فثار به أهل الحامة وقتلوا عمر بن كلى القاضي، وولّوا عليهم حسان بن هجرس واليهم.

ثم ثار به يوسف واعتقله وهو يوسف بن عبد الملك بن حجاج بن يوسف بن وشاح

وهو الآن مقدمها يعطي طاعة معروفة، ويستدعي العامل في الجباية ويراوغ عن المصدوقة والغلب والاستيلاء، وقد أحاط به من كل جهة. وأملى عليّ بعض نسابتهم أن مشيخة أهل الحامة في بني بوساك، ثم في بني تامل بن بوشباك. وأن تامل أول تن رأس عليهم، وأن وشاحاً من ولد تامل، وأن بني وشاح على فرقتين: بنو حسن وبنو يوسف فحسان بن هجرس ومولاهم وعمر وأبو علان كلهم من بني حسن، ومحمد بن أحمد بن وشاح من بني يوسف، وهذا مخالف للأول، والله أعلم بالصحيح في أمرهم. فأما نفزاوة وأعمال قسطيلية وفتنسب لهذا العهد إلى توزر وهي القرى العديدة المقدرة السير، يعترض بينها وبين توزر إلى القبلة عنها السبخة المشهورة المانعة من الاعتساف، إلا معالم قائمة من الخشب يهتدي بها السالك، وربما يضل خائضها فتبتلعه. ويسكن هذه القرى قوم من بقايا نفزاوة من البرابرة البتر أبقوا هنالك بعد انقراض جمهورهم، وتحيف العرب لسائر بطون البربر، ومعهم معاهدون من الفرنجة ينسبون إلى سردانية نزلوا على الذمة والجزية وبها الآن أعقابهم، ثم نزل عليهم من عرب الشريد وزغب من بني سليم كل من عجز عن الظعن، وملكوا بها العقار والمياه وكثروا نفزاوة، وهم لهذا العهد عامة أهلها، وليس في نفزاوة هذه رياسة لصغرها ورجوعها في الغالب إلى أعمال توزر ورياستها. هذا حال للمتقدمين ببلاد الجريد في الدولة الحفصية أوردنا أخبارهم فيها لأنهم من صنائعها، وفي عداد ولايتها ومواليها، والله متولي الأمور.

خريطة

الخبر عن بني مكي رؤساء قابس وأعمالها:

كانت قابس هذه من ثغور أفريقية ومنتظمة في عمالاتها، وكان ولاتها من القيروان

أيام الاغالبة والعبيديين وصنهاجة من لدن الفتح، ولما دخل الهلاليون أفريقية واضطربت أمورها، واقتسمت دولة صنهاجة طوائف انتزى بقابس من صنهاجة المعز بن محمد الصنهاجي، وأدال منه مونس بن يحيى الصنبري من مرداس رياح بأخيه إبراهيم إلى أن هلك، وولي أخوه قاضي بن إبراهيم ثم نازله أهل قابس وقتلوه أيام تميم بن باديس، وبايعوا لعمر بن المعز بن باديس كان مخالفاً على أخيه، وذلك سنة تسع وثمانين وأربعمائة. ثم غلبه عليها أخوه تميم وكان مغلباً للعرب. وكانت قابس وضواحيها في قسم زغبة من عرب هلال. ثم غلبتهم رياح عليها، ونزل مكن بن كامل بن جامع من بني دهمان إخوة فادغ، وهما معا من بني علي إحدى بطون رياح فاستحدث بها مكن ملكا لقومه بني جامع وأورثه بنيه إلى أن استولى الموحدون على أفريقية، وبعث عبد المؤمن عساكره إلى قابس ففر عنها مدافع بن رشيد آخرهم وانتظمها كما ذكرناه في أخبارهم وملكها وانقرض ملك بني جامع، وصارت قابس وعملها للموحدين، وكانت ولاة أفريقية من السادة يولون عليها من الموحدين إلى أن تغلب بنو غانية وقراقش على طرابلس وقابس وأعمالها، وكان ما ذكرناه في أخبارهم.

ثم غلب الموحدون يحيى بن غانية عليها وأنزلوا بها عمالهم. ولما عاد بنو أبي حفص إلى أفريقية العودة الثانية بعد مهلك الشيخ أبي محمد عبد الواحد، وعقد العادل على أفريقية لابنه أبي محمد عبد الله معه على قابس للأمير أبي زكريا أخيه فنزلها أميراً. ثم كان من شأن استبداده وخلعه لأخيه ولطاعة بني عبد المؤمن ما ذكرناه. وكان مشيخة

قابس لذلك العهد في بيوت من بيوتاتها وهم بنو مسلم ولم يحضرني فيمن هو نسبهم. وبنو مكي ونسبهم في لواتة وهو مكي بن فراج بن زيادة الله بن أبي الحسن بن محمد بن زيادة الله

بن أبي الحسين اللواتي. وكان بنو مكي هؤلاء خالصة للأمير أبي زكريا. ولما اعتزم على الاستبداد داخل أبا القاسم عثمان بن أبي القاسم بن مكي، وتولى له أخذ البيعة على الناس فكان له ولقومه بذلك مكان من الموالي أبي زكريا، رعى لهم ذمتها ورفع من شأنهم بسببها، ورموا ببني سليم نظرائهم في رياسة البلد بصاغيتهم إلى ابن غانية، فأخمدوا ذبالهم واستقلوا بشورى بلدهم. وأقاموا على ذلك أيام المولى أبي زكريا الأول وإبنه المستنصر. ثم كان ما قدمناه من مهلك الواثق ابن المستنصر وبنيه على يد عمهم السلطان أبي إسحق، وما كان من أمر الداعي بن أبي عمارة، وكيف شبه على الناس بالفضل ابن المخلوع بحيلة مولاهم نصير، رام أن يثار بها من قاتلهم فتفت مكيدته في ذلك لما أراده الله. ولما أظهر نصير أمره، وتسايلت العرب إلى بيعته خاطب لأول أمره رئيس قابس لذلك العهد من بني مكي عبد الملك بن عثمان بن مكي فسارع إلى طاعته وحمل الناس عليها، وكانت له بذلك قدم في الدولة معروف رسوخه.

ولما ألقى الداعي ابن أبي عمارة جسداً على كرسي الخلافة سنة إحدى وثمانين وستمائة

قلده خطة الجباية بالحضرة مستقلاً فيها بالولاية والعزل والفرض والتقدير والحسبان، وبعد أن أجزل من بيت المال عطاءه، وأسنى رزقه وجرايته، وأهدى الجواري من القصر إليه. ولما هلك الداعي واستقلت قدم الخلافة من عثارها كما قدمناه سنة ثلاث وثمانين وستمائة لحق عبد الحق بن مكي ببلده، وامتنع بها على حين ركود ريح الدولة وفشلها، ومرض في طاعته ودافع أهل الدولة بالدعاء للخليفة على منابره. ثم جاهر بالخلعان سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وبعث بطاعته إلى صاحب الثغور المولى أبي زكرياالأوسط. وهلك إبنه أحمد ولي عهده سنة سبع وتسعين وستمائة. ثم هلك هو من بعده على رأس المائة السابعة، وتخلف حافده مكياً فنصبوه للملك يفعة، وكفله ابن عمه يوسف بن حسن. وقام بالأمر مستبداً عليه إلى أن هلك، وخلفه في كفالة أحمد بن ليران من بيوت أهل قابس وأصهار بني مكي. والتاث أمرهم بمهلك يوسف فنقلهم

السلطان ابن اللحياني إلى الحضرة وأقاموا بها أياماً، ثم ردهم إلى بلدهم أيام تجافيه عن تونس وخروجه إلى ناحية قابس.

ثم هلك خلال ذلك مكي، وتخفف صبيين يافعين عبد الملك وأحمد فكفلهما أحمد بن ليران إلى أن شبا واكتهلا، ولهما من الامتناع على الدولة والاستبداد بأمر القطر والاقتصار على الدعاء للخليفة مثل ما كان لأبيهما وأكثر لتقلص ظل الملك عن قطرهم. وشغل السلطان بمدافعة آل يغمراسن وعساكرهم عن الثغور الغربية، وأجلابهم بالأعياص من أهل البيت على الحضرة. ولما هلك السلطان أبو يحيى اللحياني قفل إبنه عبد الواحد إلى المغرب يحاول أسباب الملك، ونزل بساحتهم على ما كان من صنائع أبيه إليهم فذكروا العهد، وأوجبوا الحق وأتوه بيعتهم. وقام كبيرهم عبد الملك بأمره، ودعا الناس إلى طاعته وخالف السلطان أبا يحيى عند نهوضه إلى الثغر ببجاية سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة كما قدمناه، فدخل الحضرة ولبث بها أياماً لم تبلغ نصف شهر. وبلغ خبرهم إلى السلطان فانكفأ راجعاً وفروا إلى مكانهم من قابر، والدولة تنظر لهم الشزر وتتربص بهم الدوائر، إلى أن غلب السلطان أبو الحسن على تلمسان ومحا دولة آل يغمراسن، وفرغت الدولة من شأنهم إلى تمهيد أعمالها وتقويم المنحرفين عن الطاعة من ولاتها.

وقفل حمزة بن عمر بشفاعة من السلطان أبي الحسن إلى السلطان أبي يحيى في

شأنه فتقبل وسيلته واستخلصه لنفسه من بعدها، واستقام هو على الطاعة التي لم تجد وليجة عنها، وسلك سبيله تلك أقتاله من الدولة الطائحين في هوة الشقاق فأوفد عبد الملك هذا شقيقه أحمد على السلطان أبي الحسن متنصلاً من ذنوبه لائذاً بشفاعته متوسلاً بما قدمناه من خدمته حظاياه في طريقهن إلى الحج ذاهباً وجائيا، فخاطب السلطان أبا يحيى في شأنه وأعاده إلى مكانه من اصطناع سلفه واستقام على طاعته. ولما انتظم السلطان أبو يحيى سائر البلاد الجريدية في ملكه وعقد عليها لابنه أبي العباس ولي عهده، وأنزله دار أمارتها متردداً ما بين توزر وقفصة إلى أن قفلت عمته من الحج سنة ست وأربعين وسبعمائة، وخرج للقائها مختفياً بين الظعائن فجمعه مجلسها بأحمد بن مكي كان قد اعتمد تلقيها والقيام

بصحابتها في مراحل سفرها من بلده إلى آخر عمله، فمسح الأمير أبو العباس الإحن عن صدره وأدال له الأمين والرضى من توحشه، واستخلصه لدولته ونجوى أسراره واصطفاه لنفسه وحمله رديفاً

لحاجبه، فحل من دولته بمكان غبطة فيه امتيازه من أمراء تلك الطوائف.
وعقد له السلطان أبو يحيى على جزيرة جربة بوسيلة أبي العباس إبنه، وقد كان
افتتحها مخلوف بن الكماد من صنائعهم من يد العدو أهل صقلية كما ذكرناه، فضضها إليه وصيرها في أعماله. ولم يزل هذا شأنه معه إلى أن هلك أبو العباس ولي العهد بتونس على يد أخيه أبي حفص عمر عندما دخلها بعد مهلك أبيهما كما ذكرناه، ولحق أحمد بن مكي ببلده. ثم سار في وفد رؤساء الجريد إلى تلقي السلطان أبي الحسن عند نهوضه إلى أفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، ولقيه معهم بوهران من أعمال تلمسان، وكان قدمه عنده فوق قدمهم. ورجع الوفد على أعقابهم محبورين. وتمسك بأحمد بن مكي في جملته إلى الحضرة، ووفد عليه أخوه عبد الملك مؤدياً طاعة السلطان فكرم موصله وأحسن متقلبهما جميعاً إلى بلدهما على ما كان بيدهما من عمل قابس وجربة. ثم كانت نكبة السلطان أبي الحسن على القيروان فوفد عليه أحمد بتونس بعد خلوصه من القيروان مجدداً لعهد طاعته، فأرادهم السلطان على الامتنان لعبد الواحد اللحياني سلطانهم الأقدم، وعقد له على تلك الثغور الشرقية، وأنزله جربة، وأمرهما بالطاعة له ما دام في طاعته. وعقد لأبي القاسم بن عتو شيخ الموحدين على توزر وقسطيلية بعد أن كان قطعه عندما تقبض عليه في واقعة السلطان أبي حفص عمر. ثم استقبل رأيه في استخلاصه عندما انتقض عليه أبو محمد بن تافراكين. ولما رجع من القيروان إلى تونس عقد له توزر كما ذكرناه، ولعبد الواحد بن اللحياني على قابس وجربة فأسف بذلك بني مكي هؤلاء. وهلك ابن اللحياني لحين نزوله بجربة بما أصابه من علة الطاعون الجارف سنة
تسع وأربعين وسبعمائة، فانتقض بنو مكي على السلطان أبي الحسن ودعوا إلى الخروج عليه وبايعوا الأفضل ابن السلطان أبي يحيى عندما أفرج عن حصار تونس سنة خمسين وسبعمائة، وداخلوا أبا القاسم بن عتو وهو إذ ذاك لم يتوزر فأجابهم وكانت من دواعي رحلة السلطان أبي الحسن من أفريقية وتقويضه عنها كما قدمناه. ولما رجع الحاجب أبو محمد بن تافراكين من المشرق، واستقل بأمر تونس، ونصب الإمام أبا إسحاق ابن السلطان أبي

يحيى للخلافة بها في كفالته غضوا بمكانه من التغلب وأنفوا من استبداده، وانحرفوا إلى دعوة الأمير أبي زيد صاحب ثغر قسنطينة. ووفد عليه

أحمد بن مكي مع محمد بن طالب بن مهلهل كبير البدو بأفريقية فيمن إليه، فاستنهضوه وقلده الأمير أبو زيد حجابته وجعل أمره إليه. وأبرز الحاجب أبو محمد بن تافراكين سلطانه أبا إسحق في عساكره مع خالد بن حمزة وقومه فالتقى الجمعان بمرمجنة وكانت الدبرة على السلطان أبي إسحق سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وجاءوا على أثرهم فنازلوا تونس أياماً وما أفرجوا عنها إلا للصائح يخبرهم باحتلال عساكر بني مرين بالمرية من آخر أعمال تلمسان، وأن السلطان أبا عنان قد استحلم بني عبد الواد، وجمع كلمة زناتة، واستقام له أمر المغربين. وأطل على الثغور الشرقية فافترق جمعهم. ولحق الأمير أبو زيد بقسنطينة، وأحمد بن مكي بقابس. وسأل من الأمير أبي زيد أن يقسم رسم الأمارة بينهم في قابس وجربة بأخيه السلطان أبي العباس فأذق له في ذلك فكانت أول ولايته السعيدة ومضى إلى قابس فنزلها، ثم أجاز البحر إلى جربة، ودفع عنها العسكر الذي كان محاصراً للقشتيل من قبل ابن ثابت صاحب طرابلس، ورجع إلى قابس حتى كان من أمره ما ذكرناه.

وأوفد السلطان أبو العباس أخاه أبا يحيى زكريا على أبي عنان ملك المغرب صريخاً على شأنه، وأوفد ابن مكي رسله متذمماً ومذكراً بوسائله فتقبل وأغضى. ثم كانت واقعة العدو دمره الله بطرابلس سنة أربع وخمسين وسبعمائة كما قدمناه فبعث إلى السلطان أبي عنان يسأله فديتها والنظر لها من بين ثغور المسلمين، فحمل إليه خمسة أحمال من الذهب العين من بيت المال، أوفد بها من أعيان مجلسه: الخطيب أبا عبد الله بن مزروق، وأبا عبد الله محمد حافد المولى أبي علي عمر بن سيد الناس. وعقد لأحمد بن مكي على طرابلس فاستقل بها، وعقد لأخيه عبد الملك على قابس وجربة وأقاموا على دعوته. ومد أحمد يده إلى صفاقس فنازلها وتغلب عليها سنة سبع وخمسين وسبعمائة. وهلك السلطان أبو عنان وقد شرق صدر ابن تافراكين الغالب على الحضرة بعداً وتهمتا فردد عليهما البعوث براً وبحراً إلى أن استخلص جزيرة جربة من أيديهما أعوام أربعة وستين وسبعمائة، وعقد عليهما لولده محمد فاستخلف بها كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون من صنائع الدولة كما ذكرناه.

وهلك أحمد بن مكي سنة ست وستين وسبعمائة على تفيئة مهلك الحاجب ابن تافراكين بالحضرة فكأنما ضربا موعداً للهلكة وتوافياه. وتخلف إبنه عبد الرحمن

بطرابلس في كفالة مولاه ظافر العلج، وهلك ظافر إثر مهلكه فاستبد عبد الرحمن بطرابلس، وساءت سيرته فيها إلى أن نازله أبو بكر بن محمد بن ثابت في أسطوله كما نذكره سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة. وأجلب عليه بالبرابرة والعرب من أهل الوطن فانتقض عليه أهل البلد وثاروا به. وبادر أبو بكر بن ثابت لاقتحامها عليه وأسلموه ففر إلى بيت أحد أمراء دباب فأجاره إلى أن أبلغه مأمنه من محلة قومه، وإيالة عمه عبد الملك بقابس إلى أن هلك سنة تسع وسبعين وسبعمائة.

ولم يزل عبد الملك لهذا العهد، وهو سنة إحدى وثمانين وسبعمائة والياً على عمله بقابس وإبنه يحيى مستبد بوزارته وحافده عبد الوهاب لإبنه مكي رديف له، وقد تراجعت أحوالهم عفا كانت وخرجت من أيديهم الأعمال التي كانت في إيالتهم لعهد أخيه أحمد مثل: طرابلس وجزيرة جربة وصفاقس وما إلى ذلك من العمالات، حتى كان البخت إنما كان لأخيه، واليمن إنما اقترن بحياته، وسيرتهما جميعاً من العدالة وتحري مذاهب الخير والسمت، والاتسام بسمات أهل الدين وحلية الفقه معروفة، حتى كان كل واحد منهم إنما يدعى بالفقيه علما بين أهل عصره حرصاً على الانغماس في مذاهب الخير وطرقه. وكان لأحمد حظ من الأدب، وكان يقرض الأبيات من الشعر فيجيد، عفا الله عنه. وله في الترسيل حظ ووساع بلاغة وخط، وينحو في كتابته منحى أهل المشرق في أوضاع حروفهم وأشكال رسومها، ولأخيه عبد الملك حظ من ذلك شارك به جهابذة أهل عصره وأفقه.

ولما انتظم السلطان أبو العباس أمصار أفريقية في ملكه واستبد بالدعوة الحفصية

على قومه داخل أهل الجريد منه الروع، وفزعوا إليه للمقاوضة في الامتناع فداخلهم في ذلك. وأشاروا إلى صاحب تلمسان بالترغيب في أفريقية فعجز عنهم وألحوا عليه فخام عن العداوة. وزحف مولانا السلطان خلال ذلك إلى الجريد فملك قفصة وتوزر ونفطة فبادر ابن مكي إلى التلبس بالاستقامة وبعث إليه بالطاعة. ثم رجع السلطان إلى الحضرة فرجع هو عن المصدوقة واتهم أهل البلد بالميل إلى السلطان فتقبض على بعضهم وفر آخرون.

وانتقض بنو أحمد أهل ضواحيه من دباب فنازلوه وبعثوا إلى الأمير أبي بكر بقفصة في العسكر لمنازلته فبعثه إليهم وأحاطوا به.

ثم انتهز الفرصة، وداخل بعض العرب من بني علي في تبييت المعسكر، وبذل لهم في ذلك المال فبيتوه وانفض وبلغ الخبر إلى السلطان فخرج من حضرته سنة إحدى وثمانين وسبعمائة، ونزل القيروان، وتوافت إليه أحاديات وبعث رسله للأعذار بين يديه فردهم ابن مكي بالطاعة. ثم احتمل رواحله ونزل بأحياء العرب وأغذ السلطان السير إلى البلد فدخلها واستولى على قصورها ولاذ أهل البلد بالبيعة فأتوها، واستعمل عليهم من بطانته وانكفأ راجعاً إلى تونس. وهلك عبد الملك لأيام قلائل بين أحياء العرب. وهلك بعده عبد الرحمن ابن أخيه أحمد الذي كان صاحب طرابلس بعد أبيه. ولحق إبنه يحيى وحافده عبد الوهاب بطرابلس فمنعهم

ابن ثابت من النزول ببلده لما كان متمسكاً بطاعة السلطان، فنزلوا بزنزور من بلاد دباب التي بضاحيتها وأقاموا هنالك. واستقامت النواحي الشرقية على طاعة السلطان وانتظمت في دعوته والله مالك الملك.

ثم ذهب يحيى بن عبد الملك إلى المشرق لقضاء فرضه، وأقام عبد الوهاب بين

أحياء البربر بالجبال هنالك، وكان الوالي الذي تركه السلطان بقابس قد ساء أثره في أهلها فدس شيعتهم إلى عبد الوهاب بذلك، وجاء إلى البلد فبيتها، وثاروا بالوالي فقتلوه سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وملك عبد الوهاب قابس وجاء أخوه يحيى من المشرق بعد قضاء فرضه فأجلب عليه مراراً يروم ملكها منه ولم يتهيأ له، ونزل على صاحب الحمة فداخله عبد الوهاب في أن يمكنه منه، ويشترط ما شاء. وتم ذلك بينهما وأوثقه كتافاً وبعث به إليه فاعتقله بقصر العروسيين، فمكث في السجن أعواما. ثم فر من محبسه ولحق بالحامة على مرحلة من قابس مستنجداً بابن وشاح صاحبها فأنجده. وما زال يجلب على نواحي قابس إلى أن ملكها وتقبض على عبد الوهاب ابن أخيه مكي فقتله أعوام تسعين وسبعمائة. ولم يزل مستبداً ببلده إلى سنة ست وتسعين وسبعمائة. وكان الأمير عمر ابن السلطان أبي العباس قد بعثه أبوه لحصار طرابلس فحاصرها حولاً كما نذكره، حتى استقام أهلها على الطاعة وأعطوا الضريبة فأفرج عنها. ورجع إلى أبيه فولاه على صفاقس وأعمالها فاستقل بها، ثم داخل أهل

الحامة في ملك قابس فأجابوه وساروا معه فبيتها ودخلها وقبض على يحيى بن عبد الملك فضرب عنقه، وانقرض أمر بني مكي من قابس، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني ثابت رؤساء مدينة طرابلس وأعمالها:

قد تقدم لنا شأن هذا البلد لأول الفتح الإسلامي، وأن عمرو بن العاص هو الذي

تولى فتحه، وبقي بعد ذلك من جملة أعمال أفريقية، تنسحب عليه ولاية صاحبها فلم يزل ثغراً لهذه الأعمال من لدن إمارة عقبة ومن بعده وفي دول الأغالبة. وكان المعز لدين الله من خلفاء الشيعة لما ارتحل إلى القاهرة، وعقد على أفريقية لبلكين بن زيري بن مناد أمير صنهاجة عقد على طرابلس لعبد الله بن يخلف من رجالات كتامة. ثم لما ولي نزار الخلافة سنة سبع وستين وثلثمائة طلب منه بلكين أن يضيف عمل طرابلس إلى عمله فأجاب

وعهد له بها، وولى عليها بلكين من رجالات صنهاجة. ثم عقد عليها الحاكم بعد مهلك المنصور بن بلكين ليانس الصقلبي سنة تسعين وثلاثمائة بمداخلة عاملها يمصول من صنهاجة، وأعانه على ذلك برجوان الصقليي المتغلب على الدولة يومئذ لمنافسته ليأنس، فوصل إليها في ألف وخمسمائة فارس فملكها، فسرح باديس جعفر بن حبيب لحربه في عسكر من صنهاجة، وتزاحفاً يومين بساحة زنزور، ثم انفض عسكر يانس في الثالث وقتل، ولحق ففه بطرابلس فاعتصموا بها. ونازلهم جعفر بن حبيب القائد، وزحف فلفول بن سعيد بن خزرون الثائر على باديس وإبنه بأفريقية إلى قابس فحاصرها.

ثم قصد جعفر بن حبيب بمكانه من حصار طرابلس فأفرج عنها جعفر ولحق بنفوسة، وأميرهم يحيى بن محمد فامتنع عليهم، ثم لحق بالقيروان ومضى فلفول بن سعيد إلى طرابلس فخرج إليه فتوح بن علي ومن معه من أصحاب يأنس فملكوه، وقام فيها بدعوة الحاكم من خلفاء الشيعة وأوطنها. وعقد الحاكم عليها ليحيى بن علي بن حمدون أخي جعفر صاحب

المسيلة النازع إليه من الأندلس فوصل إليها واستظهر بفلفول على بجاية، ونازل قابس فامتنعت عليه. ثم عجز عن الولاية ورأى استبداد

فلفول عليه بعصبته فرجع إلى مصر، واستبد فلفول بطرابلس وتداولها بنوه مع ملوك صنهاجة إلى أن استبدوا بها آخراً. ودخل العرب الهلاليون إلى أفريقية فخربوا أوطانها وطمسوا معالمها. ولم تزل بأيدي بني خزرون هؤلاء إلى أن غلبهم عليها جرجي بن ميخائيل صاحب أسطول رجار ملك صقلية من الأفرنج سنة أربعين وخمسماية، وأبقى المسلمين بها واستعمل عليهم كما فعل في سواحل أفريقية فأقاموا في ملكة النصارى أياماً. ثم ثار بهم المسلمون بمداخلة أبي يحيى بن مطروح من أعيانهم وفتكوا بهم. ولما افتتح عبد المؤمن المهدية سنة خمس وخمسين وخمسمائة وفد عليه ابن مطروح ووجوه أهل طرابلس فأوسعهم تكرمة وردهم إلى بلدهم، وولى عليهم ابن مطروح إلى أن كبر سنه وعجز. وارتحل إلى المشرق سنة ست وثمانين وخمسمائة بإذن السيد أبي زيد بن عمر بن عبد المؤمن عامل أفريقية من قبل عفه يوسف واستقر بالإسكندرية.

وتعاقبت عليها ولاة الموحدين، ثم كان من أمر ابن غانية وقراقش ما قدمناه، وصارت طرابلس لقراقش. ثم استبد بنو أبي حفص بأفريقية على بني عبد المؤمن. وهلك قراقش وابن غانية، وانتظم عمل طرابلس في أعمال الأمير أبي زكريا وبنيه إلى أن انقسمت دولتهم، واقتطعت الثغور الغربية عن الحضرة. وفشل ريح الدولة بعض الشيء وتقلص ظلها عن القاصية، فصارت رياسة طرابلس إلى الشورى ولم يزل العامل من الموحدين يجيء إليها من الحضرة إلا أن رئيسها من أهلها مستبد عليها، وحدثت العصبية في البلد لحدوث الشورى والمنافسة فيها. ثم نزلها السلطان أبو يحيى بن اللحياني سنة سبع عشرة وسبعماية حين تجافى عن ملك الحضرة، وأحس بزحف السلطان أبي يحيى صاحب بجاية إليها فأبعد عن تونس إلى ثغر طرابلس، وأقام بها وأقام أحمد بن عربي من مشيختها بخدمته.

ولما فارق ابن اللحياني تونس ويئس الموحدون من عوده أخرجوا إبنه محمد المكنى بأبي ضربة من الاعتقال، وبايعوا له. وخرج للقاء السلطان أبي بكر ومدافعته فهزمه السلطان أبو بكر وحمله الأعراب الذين معه على قصد طرابلس لانتزاع الأموال والذخائر الملوكية من يد أبيه. ولما أحس

بذلك أبوه ركب البحر من طرابلس إلى الإسكندرية كما هو مذكور في خبره، واستخلف على طرابلس صهره محمد بن أبي عمر بن إبراهيم بن أبي حفص فقام بأمرها، وولى حجابته رجلاً من أهله يشهر

بالبطيسي فساء أثره في أهل طرابلس، وحجب عنهم وجه الرضى من سلطانه، وحمله على مصادرتهم واستخلاص أموالهم حتى أجمعوا الثورة بالسلطان فركب السفين ناجياً منهم بعد أن تعرض بعضهم لوداعه فأطلعه على سعايات البطيسي بهم فقتلوه لوقته، وقتلوا قاضياً بطرابلس من أهل تونس كان يمالىء على ذلك. وتولى كبر ذلك أحمد بن عربي. ثم هلك وقام بأمر طرابلس محمد بن كعبور فقتله سعيد بن طاهر المزوغي وملك أمر البلد، وكان معه أبو البركات بن أبي الدنيا فمات حتف أنفه. واستقل ابن طاهر بأمر طرابلس إثنتي عشرة سنة. ثم هلك وقام بأمرها ثابت بن عمار الزكوجي من قبائل هوارة. وثار به لستة أشهر من ولايته أحمد بن سعيد بن طاهر فقتله واستبد به. ثم ثار به جماعة زكوجة وقتلوه في مغتسله عند الأذان بالصبح، وولوا محمداً ابن شيخهم ثابت بن عمار أعوام سبعة وعشرين فاستبد بأمر طرابلس نحوا من عشرين سنة وظل الدولة متقلص عنه. وهو يغالط عن الإمارة بالتجارة والاحتراف بها ولبوس شارتها، والسعي راجلاً في سكك المدينة يتناول حاجاته وماعونه بيده ويخالط السوقة في معاملاته، يذهب في ذلك مذهب التخلق والتواضع يسر منه حسوا في ارتغاء، ويطلب العامل من تونس؛ فيبعثه السلطان على طرابلس يقيم عنده معتملاً في تصريفه. وهو يبرأ إليه ظاهراً من الأحكام والنقض والإبرام إلى أن كان تغلب بني مرين على أفريقية. ووصل السلطان أبو الحسن إلى الحضرة على ما نذكره، فداوله طرف الحبل وهو ممسك بطرفه، ونقل إلى الإسكندرية ماله وذخيرته. ثم اغتاله أثناء ذلك جماعة من مجريش عند داره فقتلوه، وثار منهم للحين بطانته وشيعه. وولي بعده إبنه ثابت، فتزيا بزي الأمارة في اللبوس والركوب بحلية الذهب، واتخاذ الحجاب والبطانة.

وأقام على ذلك إلى أن اجتمع بها أسطول من تجار النصارى أغفلوا أمرهم لكثرة طروقهم وترددهم في سبيل التجارة، وكثرة ما يغشاها من سفنهم، فغدروا بها ليلاً وثاروا فيها وكثروا أهلها فأسلم الحامية إليهم باليد. وفر مقدمهم ثابت إلى حلة أولاد مرغم أمراء الجواري في أنحائها فقتلوه صبراً لدم كان أصابه منهم في رياسته؛ فكانت مدته ست سنين، وقتلوا معه أخاه عماراً. واكتسح النصارى جميع ما كان بالبلد من

الذخيرة والمتاع والخرثى والماعون، وشحنوا السفن بها وبالأسرى من العقائل والحامية مصفدين، وأقاموا بالبلد أياماً على قلق ورهب من الكرة لو كان لها رجال. ثم تحدثوا مع من جاورها من المسلمين في فدائها فتصدى لذلك صاحب قابس أبو العباس أحمد بن مكي وبذل لهم فيها خمسين ألفاً من الذهب استوهب أكثرها من جماعة المسلمين بالبلاد الجريدية تزلفاً إلى الله باستخلاص الثغر من يد الكفر، وذلك سنة... وخمسين ولحق ولد ابن ثابت بثغر الإسكندرية فأقاموا به يحترفون بالتجارة إلى أن هلك أحمد بن مكي سنة ست وستين وسبعمائة، وقام بأمره ولده عبد الرحمن، فسما أبو بكر بن محمد بن ثابت إلى رياسة أبيه، وذكر عهود الصبا في معاهد قومه فاكترى من النصارى سفنا شحنها بصنائعه وموالي أبيه، ونازلها سنة إحدى وسبعين وسبعمائة في أسطول من أساطيلهم. واجتمع إليه ذؤبان العرب ففرق فيهم الأموال وأجلب عليها بمن في قراها وأريافها من الرجل، فاقتحمها على عبد الرحمن بن أحمد بن مكي عنوة، وأجاره العرب من أولاد مرغم بن صابر، تولى ذلك منهم إلى أن أبلغوه مأمنه في إيالة عمه عبد الملك بمكان أمارتهم بقابس. واستوسق أمر طرابلس لأبي بكر هذا، واستقل بولايتها. ودخل في طاعة السلطان

أبي العباس بتونس، وخطب له على منابره، وقام يصانعه بما للسلطان من الضريبة، ويتحفه حيناً بعد حين بالهدايا والطرف إلى أن هلك سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، وولي مكانه علي ابن أخيه عمار، وقام بكفالته عمه. وكان قائده قاسم بن خلف الله متهما بالتشيع للصبي المخلف عن أبي يحيى فارتاب ودفعوه لاقتضاء المغارم من مسرتة، فتوحش الخليفة من علي وانتقض. ثم بعث إليه بأمانه فرجع إلى طرابلس، ثم استوحش وطلب الحج فخلوا سبيله وركب البحر إلى الإسكندرية. ولقي بها خالصة السلطان محمد بن أبي هلال عام حج فأخذ منه ذمة، وكر راجعاً في السفين إلى تونس يستحث السلطان لملك طرابلس. فلما مر بهم راسلوه ولاطفوه واستعادوه إلى مكانه فعاد إليهم. ثم جاءته النذر بالهلكة ففر، ولحق السلطان بتونس واستحثه لملك طرابلس. وبلغ الخبر إلى السلطان فبعث معه إبنه

الأمير أبا حفص عمر لحصار طرابلس فنزل بساحتها، وافترق عرب دياب عليه وعلى ابن ثابت، وقام ابن خلف الله في خدمته المقام المحمود، ووفر له جباية الوطن ومغارمه ونقل العرب إلى طاعته ويستألفهم به، وأقام عليها حولاً كريتاً يمنع عنهم الأقوات ويبترزون إليه فيقاتلهم بعض الأحيان. ثم دفعوه بالضريبة التي عليهم لعدة أعوام نائطة وكان قد ضجر من طول المقامة فرضي بطاعتهم وانكفأ راجعاً إلى أبيه سنة خمس وتسعين وسبعمائة فولاه على صفاقس وافتتح منها قابس كما قدمناه. وأقام علي بن عمار على أمارته بطرابلس إلى هذا العهد، والله مدبر الأمور بحكمته. هذا آخر الكلام في الدولة الحفصية من الموحدين وما تبعها من أخبار المقدمين المستبدين بأمصار الجريد والزاب والثغور الشرقية، فلنرجع إلى أخبار زناتة ودولهم، وبكمالها يكمل الكتاب إن شاء الله تعالى.

نهاية المجلد